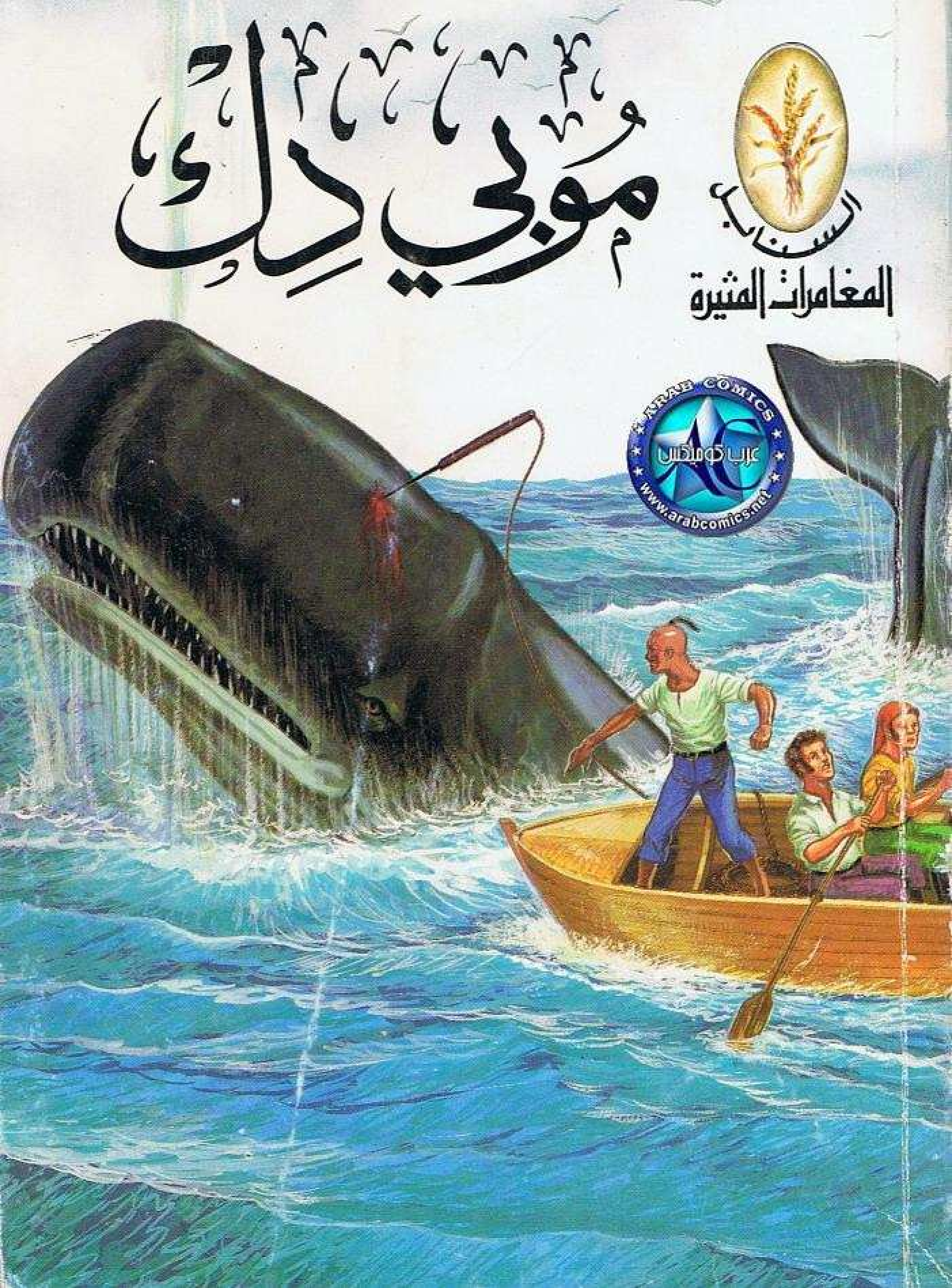
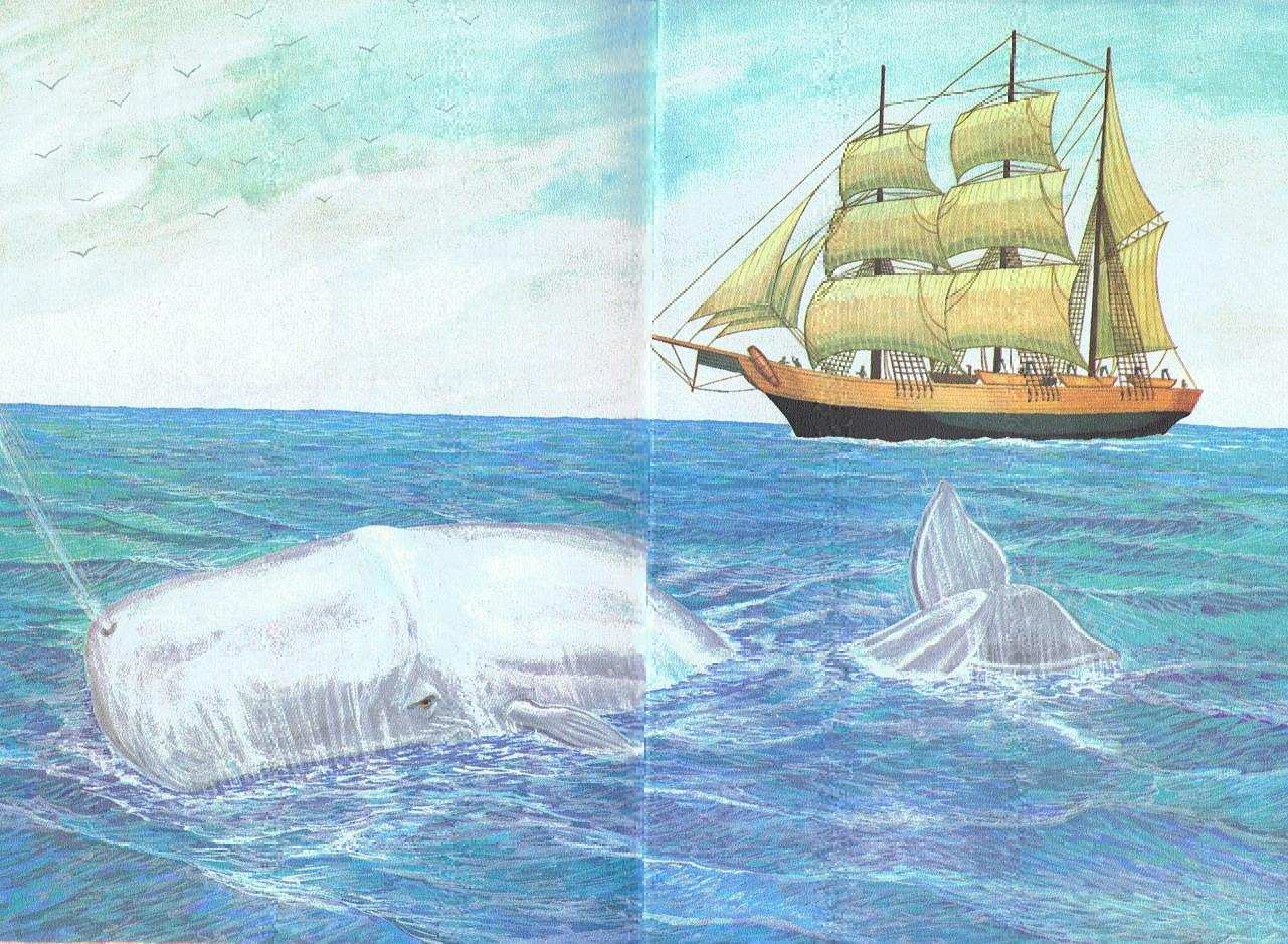

موبي دِك
السنابل
المغامرات المثيرة
ARAB COMICS
عرب كوميكس
www.arabcomics.net



رئيس التحرير : وجدي رزق غالي

١٠ أ شارع حسين واصف ، ميدان المساحة ، الدقي – الجيزة ، مصر

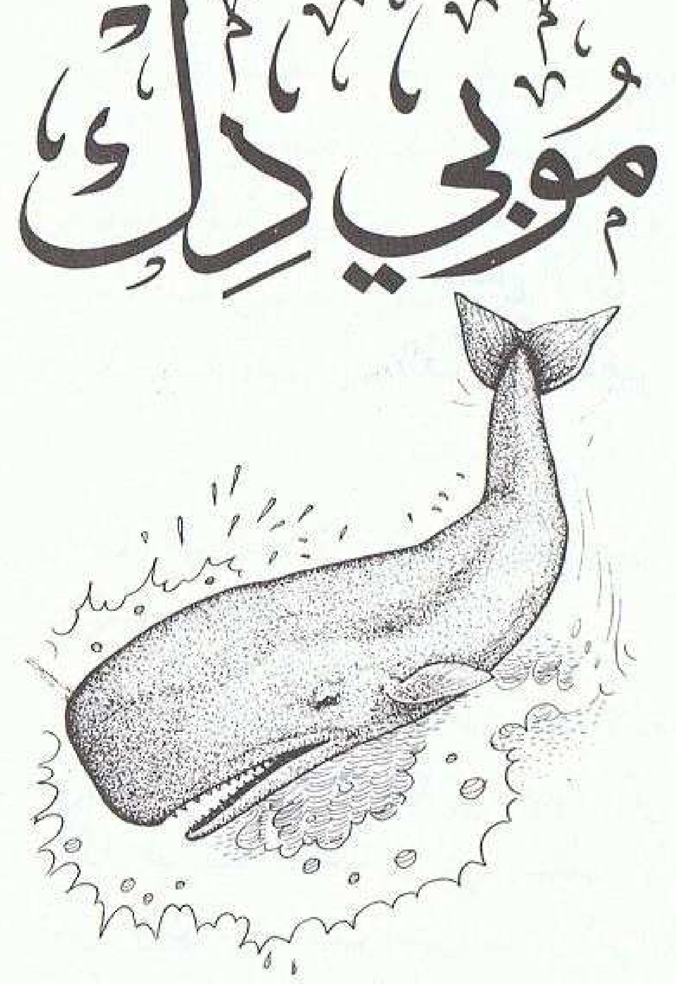
الطبعة الأولى ١٩٩٢

رقم الإيداع : ١٩٩٢/٥٦٠٠

الترقيم الدولي : ISBN ٩٧٧ - ١٦ - ٠٠٩٨ - ٢

طبع في دار نوبار للطباعة





تأليف : هِرمان مِلڤيل

أعدها بالعربية : علي عبد الهادي منيب

رسوم : ممدوح الفرماوي

مكتبة لبنان

الفصل الأول

الفُنْدُقُ الصَّغير

اسْمي إسماعيل ، وَسأقُصُّ عَلَيْكُمْ قِصَّةً عَنْ إحْدى الرِّحْلاتِ البَحْرِيَّةِ الَّتي قُمْتُ بِها مُنْذُ بِضْعَةِ أعْوامٍ .

كانَ مِنْ عادَتي أنْ أبْحَثَ عَنْ سَفينَةٍ لأبْحِرَ فيها عِنْدَما لا أجِدُ مَعي نُقوداً ، وَأشْعُرُ بِالحاجَةِ إلى تَغْيير . إنَّني لا أبْحِرُ في إحْدى السُّفُنِ الضَّخْمَةِ الفاخِرَةِ ، الَّتي يَسْتَقِلُّها الأغْنِياءُ وَيَتَناوَلونَ فيها أشْهى المَأكولاتِ وَأطْيَبَ المَشْروباتِ ، لأنَّني لا أمْلِكُ مالاً كافِياً يَسْمَحُ لي بِذلِكَ . وَلا أبْحِرُ كَذلِكَ في أيِّ سَفينَةٍ لأعْمَلَ فيها طَبّاخاً أوْ عامِلاً مِنْ عُمّالِ النَّظافَةِ ، وَلكِنَّني دائِماً أحْرِصُ عَلى أنْ أبْحِرَ في السَّفينَةِ كَبَحّارٍ بَسيطٍ .

في أوَّلِ الأمْرِ ، كانَ لا يَروقُ لي أنْ أتَلَقّى أوامِرَ مِنْ أحَدٍ ، لأنَّ ذلِكَ لا يَتَناسَبُ مُطْلَقاً مَعَ حَياتي العادِيَّةِ ، حَيْثُ اعْتَدْتُ إصْدارَ

الأوامِرِ لِلآخَرينَ . وَلكِنَّني – في وَقْتٍ وَجيزٍ – تَعَوَّدْتُ هَذا التَّغْيِيرَ . فَعِنْدَما يَأْمُرُني الرُّبّانُ بِتَنْظيفِ سَطْحِ السَّفينَةِ فَلَيْسَ لي إلّا أنْ أطيعَ هَذا الأمْرَ ، لأنَّني أعْرِفُ تَماماً أنَّهُ عَلى صَوابٍ ، إنَّهُمْ يَدْفَعونَ لي أجْراً عَلى عَمَلي بِالسَّفينَةِ ، وَإنَّني أعْمَلُ لأتَقاضى هَذا الأجْرَ ، فَضْلاً عَنْ أنَّني أنْعَمُ خِلالَ أدائي لِهَذا العَمَلِ بِهَواءِ البَحْرِ النَّقِيِّ ، وَأسْتَمْتِعُ بِالرِّياحِ الطَّبيعِيَّةِ الَّتي تَهُبُّ عَلَيْهِ .

في هَذِهِ المَرَّةِ – وَبَعْدَ تَفْكيرٍ عَميقٍ – قَرَّرْتُ أنْ أبْحِرَ عَلى سَفينَةٍ لِصَيْدِ الحيتانِ .

هُناكَ سُفُنٌ عَديدَةٌ تَقومُ بِصَيْدِ الحيتانِ في المُحيطِ ؛ لِلْحُصولِ عَلى ما يَحْتَوي عَلَيْهِ جَسَدُ الحوتِ مِنْ زَيْتٍ ثَمينٍ ذي قيمَةٍ كَبيرَةٍ . وَتُعْتَبَرُ جَزيرَةُ نانْتوكِت – الَّتي تَقَعُ عِنْدَ السّاحِلِ الشَّرْقِيِّ لأمْريكا الجَنوبِيَّةِ – أفْضَلَ الأماكِنِ لِوُجودِ هَذِهِ السُّفُنِ . لِذلِكَ اقْتَضى الأمْرُ أنْ أذْهَبَ إلى هَذِهِ الجَزيرَةِ ، عَنْ طَريقِ القارِبِ الَّذي يُبْحِرُ إلَيْها مِنْ مَدينَةِ نيوبِدْفورد ، الَّتي وَصَلْتُ إلَيْها لَيْلَةَ يَوْمٍ مِنْ أيّامِ السَّبْتِ ، وَلكِنَّني لَمْ ألْحَقْ بِالقارِبِ الَّذي كانَ قَدْ غادَرَها مِنْ قَبْلُ ، قاصِداً جَزيرَةَ نانْتوكِت ، وَباتَ مِنَ المُحَتَّمِ عَلَيَّ البَقاءُ في نيوبِدْفورد لِلَيْلَةٍ أخْرى أوْ أكْثَرَ .

وَقَفْتُ في وَسَطِ أَحَدِ شَوارِعِ المَدينَةِ الَّتي لا ضَوْءَ فيها ، وَاللَّيْلُ يُرْخي سُدولَهُ ، وَقَدْ تَمَلَّكَتْني الحَيْرَةُ ؛ فَأَيْنَ أَقْضي تِلْكَ اللَّيْلَةَ وَلَيْسَ مَعي مِنَ النُّقودِ إِلّا القَليلُ .

قُلْتُ لِنَفْسي : « إسماعيل ، عَلَيْكَ أَنْ تَسْعى إلى المَبيتِ في حُجْرَةٍ ، بِشَرْطِ أَلا يَكونَ أَجْرُها كَبيراً . »

قادَتْني قَدَمايَ نَحْوَ شاطِئِ البَحْرِ حَيْثُ شاهَدْتُ فُنْدُقًا صَغيراً ، يَنْبَعِثُ مِنْ داخِلِهِ نورٌ خافِتٌ ، وَيَصِلُ إلى أُذُنَيَّ أَصْواتُ نُزَلائِهِ . وَعِنْدَما فَتَحْتُ البابَ وَقَعَ نَظَري عَلى مِنْضَدَةٍ طَويلَةٍ مُنْحَنِيَةٍ انْحِناءَ القَوْسِ ، يَقِفُ خَلْفَها رَجُلٌ يَبيعُ المَشْروباتِ إلى بَعْضِ البَحّارَةِ .

وَكانَ المُتَعامِلونَ مَعَهُ يُطْلِقونَ عَلَيْهِ اسْمَ « يونان » لأَنَّ شَكْلَ هذِهِ المِنْضَدَةِ يُشْبِهُ العِظامَ السُّفْلى لِفَكِّ الحوتِ ، وَفي الإِنْجيلِ قِصَّةٌ تَحْكي أَنَّ أَحَدَ الحيتانِ قَدِ ابْتَلَعَ قِدّيساً يُدْعى يونان .

قَصَدْتُ صاحِبَ الفُنْدُقِ سائِلاً إِيّاهُ : « هَلْ أَسْتَطيعُ أَنْ أَجِدَ غُرْفَةً أَقْضي فيها اللَّيْلَةَ ؟ »

أَجابَ : « لا . الفُنْدُقُ كُلُّهُ مَشْغولٌ ، وَلا يوجَدُ بِهِ غُرْفَةٌ واحِدَةٌ خالِيَةٌ . » ثُمَّ اسْتَطْرَدَ مُسْتَفْسِراً بَعْدَ تَفْكيرٍ : « هَلْ تُشارِكُ أَحَدَ النُّزَلاءِ فِراشَهُ ؟ »

سَأَلْتُ عَلى الفَوْرِ : « مَعَ مَنْ ؟ »

رَدَّ قائِلاً : « مَعَ أَحَدِ صَيّادي الحيتانِ . هَلْ تَوَدُّ مُشارَكَتَهُ في غُرْفَتِهِ ؟ »

هُنا قَدْ يَكونُ مِنَ المُلائِمِ أَنْ أَذْكُرَ شَيْئًا عَنْ عَمَلِ هؤُلاءِ الصَّيّادينَ ؛ إِنَّهُمْ يَسْتَخْدِمونَ نَوْعًا مِنَ الحِرابِ ذاتِ أَطْرافٍ حادَّةٍ مُنْحَنِيَةٍ إلى الخَلْفِ ، لِدَرَجَةِ أَنَّ الصَّيّادَ عِنْدَما يَرْشُقُ إِحْداها في جَسَدِ الحوتِ لا يُمْكِنُ نَزْعُها . وَالحَرْبَةُ مَرْبوطَةٌ بِحَبْلٍ تَجْعَلُ الحوتَ – بَعْدَ إِصابَتِهِ بِها – يَسْبَحُ بَعيداً جاذِبًا قارِبَ الصَّيْدِ خَلْفَهُ بِهذا الحَبْلِ .

وَيَعْني هذا أَنَّ صَيّادي الحيتانِ يَتَمَيَّزونَ بِالقُوَّةِ وَالخُشونَةِ . وَلِذلِكَ قُلْتُ لِصاحِبِ الفُنْدُقِ ، عِنْدَما سَأَلَني عَنْ مُشارَكَةِ أَحَدِهِمْ في غُرْفَةِ نَوْمِهِ : « إِنَّ الأَمْرَ يَتَوَقَّفُ عَلى الصَّيّادِ نَفْسِهِ . وَلكِنَّني مِنَ المُحْتَمَلِ أَلا أَوَدَّ مُشارَكَةَ أَحَدِ هؤُلاءِ الصَّيّادينَ في حُجْرَتِهِ . »

وَجاءَ رَدُّ صاحِبِ الفُنْدُقِ : « هذا هُوَ المَوْقِفُ ، وَلَيْسَ لَدَيَّ حَلٌّ آخَرُ عَلى الإِطْلاقِ . »

وَبَعْدَ أَنْ فَكَّرْتُ مَلِيًّا في قَضاءِ لَيْلَةٍ بارِدَةٍ عاصِفَةٍ خارِجَ الفُنْدُقِ ، قُلْتُ مُضْطَرًّا : « لا مَناصَ مِنْ مُشارَكَةِ أَيِّ شَخْصٍ فِراشَهُ

حَتَّى وَلَوْ كانَ مِنْ هَذا النَّوْعِ مِنَ الصَّيَّادينَ .»

قالَ صاحِبُ الفُنْدُقِ : « إِنَّني أَعْتَقِدُ ذَلِكَ أَيْضاً . اسْتَرِحْ قَليلاً . يَبْدو أَنَّكَ في حاجَةٍ إِلى تَناوُلِ طَعامِ العَشاءِ . سَيَكونُ مُعَدًّا لَكَ في الحالِ .»

وَفي غُرْفَةٍ أُخْرى لا تَدْفِئَةَ فيها قَدَّمَ صاحِبُ الفُنْدُقِ الطَّعامَ لي وَلِبَعْضِ النُّزَلاءِ الآخَرينَ ، حَيْثُ قالَ أَحَدُهُمْ : « الجَوُّ هُنا قارِسُ البَرْدِ كَما لَوْ كُنَّا في جَزيرَةِ أَيسْلَنْدا .»

رَدَّ عَلَيْهِ صاحِبُ الفُنْدُقِ قائِلاً : « مَعْذِرَةً ! لَيْسَ مَعي مِنَ النُّقودِ ما يُتيحُ لي أَنْ أُشْعِلَ ناراً في مِدْفَأَةِ الغُرْفَةِ .»

أَمْسَكْتُ فِنْجانَ الشَّاي السَّاخِنِ بَيْنَ يَدَيَّ طَلَباً لِلتَّدْفِئَةِ ، وَأَمامَنا عَلى المائِدَةِ طَعامٌ ، يَتَكَوَّنُ مِنْ بَطاطِسَ وَعَصيدَةٍ مَغْلِيَّةٍ مُكَوَّنَةٍ مِنْ دَقيقٍ وَسَمْنٍ وَسُكَّرٍ . وَبَدَأَ أَحَدُنا – وَهُوَ شابٌّ يَرْتَدي مِعْطَفاً أَخْضَرَ اللَّوْنِ – في تَناوُلِ الطَّعامِ في لَهْفَةٍ ، قائِلاً : « إِنَّني أَشْعُرُ بِجوعٍ شَديدٍ .»

قالَ لَهُ صاحِبُ الفُنْدُقِ : « يا بُنَيَّ ، إِنَّكَ إِذا تَناوَلْتَ الطَّعامَ بِهَذِهِ الشَّراهَةِ فَسَتُشاهِدُ أَحْلاماً مُزْعِجَةً في نَوْمِكَ .»

عِنْدَئِذٍ هَمَسْتُ سائِلاً صاحِبَ الفُنْدُقِ : « أَ لَيْسَ هَذا الشَّابُّ هُوَ

صَيَّادَ الحيتانِ الَّذي سَأُشارِكُهُ حُجْرَتَهُ ؟»

« لا ، فَهَذا يَبْدو صورَةً ضَئيلَةً بِالنِّسْبَةِ لَهُ . فَالصَّيَّادُ رَجُلٌ أَسْوَدُ البَشَرَةِ ، لا يَتَناوَلُ مِثْلَ هَذِهِ الحَلْوَياتِ مِنَ الأَطْعِمَةِ أَبَداً ، بَلْ يَأْكُلُ اللُّحومَ الحَمْراءَ فَقَطْ .»

« وَأَيْنَ هَذا الصَّيَّادُ ؟ هَلْ هُوَ مَوْجودٌ هُنا ؟»

أَجابَ صاحِبُ الفُنْدُقِ : « سَيَحْضُرُ عَلى الفَوْرِ .»

لَمْ أَشْعُرْ بِالارْتِياحِ بِصَدَدِ مُشارَكَتي لِشَخْصٍ آخَرَ في غُرْفَتِهِ ، وَخَطَرَ بِبالي أَنْ أَنْتَظِرَ حَتَّى يَأْوِيَ ذَلِكَ الصَّيَّادُ إِلى فِراشِهِ أَوَّلاً . وَهَكَذا قَضَيْتُ المَساءَ مُصْغِياً إِلى البَحَّارَةِ ، الَّذينَ وَصَلَتْ سُفُنُهُمْ تَوًّا إِلى الميناءِ ، وَهُمْ يَتَحَدَّثونَ عَنْ رِحْلاتِهِمْ وَآخِرِ الأَخْبارِ لَدَيْهِمْ ، عَلى حينِ ظَلَّ يونان مَشْغولاً بِتَقْديمِ المَشْروباتِ ، وَالضَّوْضاءُ وَالصَّخَبُ في المَكانِ يَزْدادانِ بِالتَّدْريجِ .

وَفي السَّاعَةِ الثَّانِيَةَ عَشْرَةَ عِنْدَ مُنْتَصَفِ اللَّيْلِ جاءَ صاحِبُ الفُنْدُقِ وَقالَ لي : « لَنْ تَرى الصَّيَّادَ هَذِهِ اللَّيْلَةَ ، وَلا داعِيَ لِلانْتِظارِ . سَأُحْضِرُ مِصْباحاً وَأُرْشِدُكَ إِلى غُرْفَتِكَ .»

وَصَعِدْنا مَعاً إِلى حُجْرَةٍ صَغيرَةٍ بارِدَةٍ ، بِها سَريرٌ كَبيرٌ جِدًّا يَكْفي لِنَوْمِ أَرْبَعَةِ رِجالٍ .

وَقالَ صاحِبُ الفُنْدُقِ : « خُذْ راحَتَكَ في هَذِهِ الحُجْرَةِ ، وَأَتَمَنَّى لكَ لَيْلَةً طَيِّبَةً .»

وَتَرَكَ المِصْباحَ ثُمَّ غادَرَ المَكانَ .

الفصل الثاني

صَيّادُ الحِيتان

خَلَعْتُ مَلابِسي عَلى الفَوْرِ رَغْمَ شُعوري بِالبَرْدِ الشَّديدِ ، وَقَفَزْتُ إلى الفِراشِ ، الَّذي اكْتَشَفْتُ صَلابَتَهُ وَخُشونَتَهُ وَكَأَنَّهُ مَحْشُوٌّ بِقِطَعٍ مِنَ الحِجارَةِ ، جَعَلَتْني لا أَسْتَطيعُ النَّوْمَ لِفَتْرَةٍ مِنَ الوَقْتِ ، وَلَكِنَّني اسْتَغْرَقْتُ في النَّوْمِ بَعْدَها مِنْ فَرْطِ الإعْياءِ .

وَلَمْ تَكَدْ تَمْضي بِضْعُ ساعاتٍ حَتَّى أَيْقَظَني فَجْأَةً وَقْعُ أَقْدامٍ ثَقيلَةٍ ، وَفَتَحْتُ عَيْنَيَّ لأَرى شَخْصاً غَريباً يَدْخُلُ الحُجْرَةَ . لَمْ يَلْتَفِتْ نَحْوَ السَّريرِ ، فَاحْتَفَظْتُ بِهُدوئي لأَنَّني لَمْ أُشاهِدْ وَجْهَهُ في أَوَّلِ الأَمْرِ ؛ وَلَكِنَّهُ عِنْدَما اسْتَدارَ نَحْوَ ضَوْءِ المِصْباحِ دَعَوْتُ اللَّهَ في نَفْسي أَنْ يُنْقِذَني مِنْهُ !

يا لَهُ مِنْ وَجْهٍ مُخيفٍ لَمْ أَرَ مِثْلَهُ مِنْ قَبْلُ !

إنَّهُ وَجْهٌ أسْوَدُ أرْجُوانِيُّ اللَّوْنِ ، تَعْلوهُ ضِمادات صَفْراءُ وَسَوْداءُ هُنا وَهُناكَ .

نَعَمْ – كَما تَوَقَّعْتُ بِالضَّبْطِ – إنَّهُ شَخْصٌ فَظيعٌ لا أطيقُ مُشارَكَتَهُ في غُرْفَةِ نَوْمٍ واحِدَةٍ . وَيَبْدو أنَّهُ اشْتَرَكَ في مُشاجَرَةٍ ؛ حَيْثُ وَضَعَ أحَدُ الأطِبَّاءِ – عَلى إثْرِها – تِلْكَ الضِّماداتِ عَلى وَجْهِهِ عِلاجًا لِما أصابَهُ مِنْ رُضوضٍ وَجُروحٍ .

وَتَبَيَّنَ لي كَذَلِكَ أنَّ عَلاماتِ « الوَشْمِ » المَرْسومَةَ عَلى وَجْهِهِ تَبْدو كَأنَّها بُقَعٌ مَصْبوغَةٌ . فَتَذَكَّرْتُ حينَئِذٍ قِصَّةَ بَعْضِ البَحَّارَةِ ، الَّذينَ وَقَعوا أسْرى في قَبْضَةِ رِجالٍ مُتَوَحِّشينَ ، مَنْقوشٍ عَلى وُجوهِهِمْ وَأجْسامِهِمْ مِثْلُ تِلْكَ العَلاماتِ . وَتَخَيَّلْتُ أنَّ رُسومَ الوَشْمِ عَلى وَجْهِ هَذا الرَّجُلِ مَنْقوشَةٌ بِنَفْسِ هَذِهِ الطَّريقَةِ .

قُلْتُ لِنَفْسي وَأنا أشْعُرُ بِالأسَفِ مِنْ أجْلِهِ : « وَلَكِنَّ هَذا كُلَّهُ لا يَعْدو أنْ يَكونَ مَظْهَرَهُ الخارِجِيَّ فَحَسْبُ ، وَلا يُنْبِئُ لَوْنُ البَشَرَةِ عَنْ مَعْدِنِ الإنْسانِ . وَمِنَ المُمْكِنِ أنْ يَكونَ الإنْسانُ أمينًا مُخْلِصًا مَهْما كانَ لَوْنُ بَشَرَتِهِ .

ظَلَّ هَذا الرَّجُلُ الغَريبُ غَيْرَ مُهْتَمٍّ بِالنَّظَرِ إلى الفِراشِ ، الأمْرُ

الَّذي أعانَني عَلى مُراقَبَتِهِ وَهُوَ يَخْلَعُ قُبَّعَتَهُ ، فَكَشَفَ عَنْ رَأْسٍ أصْلَعَ لا شَعْرَ فيهِ ، اللَّهُمَّ إلا خُصْلَةً صَغيرَةً مَعْقودَةً عَلى قِمَّتِهِ . وَلَمْ يَمْنَعْني مِنَ الهُروبِ خارِجَ الحُجْرَةِ إلا وُقوفُهُ حائِلاً بَيْني وَبَيْنَ البابِ .

مَكَثْتُ راقِدًا في مَضْجَعي أرْتَعِدُ مِنَ الخَوْفِ ، حَريصًا عَلى مُلاحَقَةِ تَحَرُّكاتِهِ . فَأخْرَجَ مِنْ جَيْبِهِ تِمْثالاً صَغيرًا مِنَ الخَشَبِ وَ وَضَعَهُ في مَكانِ المِدْفَأةِ ، وَأخَذَ يَرُصُّ أمامَهُ بَعْضًا مِنَ القِطَعِ الخَشَبِيَّةِ الصَّغيرَةِ ، وَ وَضَعَ عَلَيْها قِطْعَةً مِنَ الخُبْزِ الجافِّ السَّميكِ ، مِنْ ذَلِكَ النَّوْعِ الَّذي يَتَناوَلُهُ البَحَّارَةُ في السُّفُنِ أثْناءَ رِحْلَتِهِمْ . وَبَعْدَ أنْ أشْعَلَ فيها النَّارَ أخَذَ قِطْعَةَ الخُبْزِ وَقَدَّمَها إلى التِّمْثالِ الخَشَبِيِّ الصَّغيرِ مُتَرَنِّمًا بِأغْنِيَّةٍ عَجيبَةٍ . وَبِطَبيعَةِ الحالِ لَمْ يُحَرِّكِ التِّمْثالُ ساكِنًا ، فَأعادَهُ في الحالِ إلى جَنْبِهِ بَعْدَ أنْ أخْمَدَ النَّارَ ، ثُمَّ أطْفَأَ المِصْباحَ وَأوى إلى الفِراشِ .

انْطَلَقَتْ صَيْحَةٌ مِنِّي وَابْتَعَدْتُ عَنْهُ ، وَنَهَضْتُ مُسْرِعًا لأشْعِلَ المِصْباحَ مِنْ جَديدٍ .

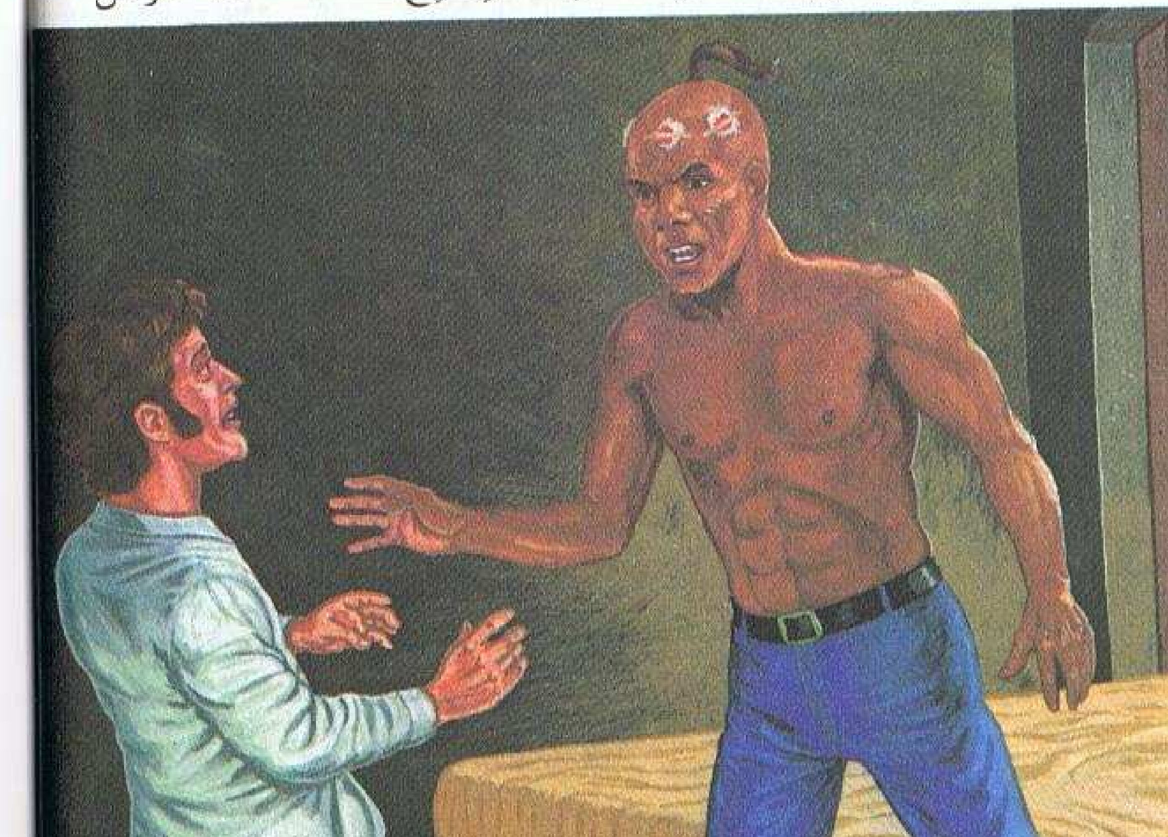
وَنادَيْتُ صاحِبَ الفُنْدُقِ لِيُنْقِذَني مِمَّا أنا فيهِ .

وَعِنْدَئِذٍ نَطَقَ هَذا المارِدُ الأَسْوَدُ مُلَوِّحاً بِذِراعَيْهِ نَحْوي : « مَنْ أَنْتَ ؟ تَكَلَّمْ ، وَإِلّا قَتَلْتُكَ ! »

حَمْداً لِلّهِ أَنْ وَصَلَ صَوْتُ اسْتِغاثَتي لِصاحِبِ الفُنْدُقِ ، الَّذي حَضَرَ تَوّاً قائِلاً وَهُوَ يَضْحَكُ : « لا تَخَفْ ، وَهَدِّئْ مِنْ رَوْعِكَ . إِنَّ هَذا الصَّيّادَ يُدْعى كويكْوِغ ، وَلَنْ يَمَسَّ شَعْرَةً واحِدَةً مِنْ رَأْسِكَ . »

صَرَخْتُ في وَجْهِهِ قائِلاً : « كُفَّ عَنْ هَذا الضَّحِكِ . لِماذا لَمْ تُخْبِرْني بِشَيْءٍ عَنْ هَيْئَةِ هَذا الصَّيّادِ أَوْ شَكْلِهِ ؟ »

قالَ صاحِبُ الفُنْدُقِ مُخاطِباً كويكْوِغ : « هَذا الرَّجُلُ



سَيُشارِكُكَ الفِراشَ . هَلْ فَهِمْتَ ما أَقْصِدُ ؟ »

رَدَّ كويكْوِغ : « نَعَمْ . » ثُمَّ انْتَصَبَ جالِساً وَأَشْعَلَ غَلْيونَهُ وَأَخَذَ يَسْتَمْتِعُ بِالتَّدْخينِ .

وَخاطَبَني قائِلاً بِطَريقَةٍ مُهَذَّبَةٍ لَطيفَةٍ لِلْغايَةِ وَهُوَ يُفْسِحُ لي مَكاناً في الفِراشِ : « تَفَضَّلْ . »

حانَتْ لي فُرْصَةُ النَّظَرِ إِلَيْهِ في ضَوْءِ المِصْباحِ ، وَتَبَيَّنْتُ أَنَّهُ رَجُلٌ نَظيفٌ حَسَنُ الشَّكْلِ .

وَقُلْتُ ساخِراً مِنْ نَفْسي : « يا لَها مِنْ ضَجَّةٍ كُبْرى افْتَعَلْتُها ! فَلا مُبَرِّرَ لَدَيَّ يَجْعَلُني أَتَوَجَّسُ خيفَةً مِنْ هَذا الرَّجُلِ ، فَلَمْ يَكُنْ ثَمِلاً . وَمِنَ الأَفْضَلِ بِالنِّسْبَةِ لي أَنْ أَنامَ مَعَهُ في غُرْفَةٍ واحِدَةٍ عَنْ أَنْ أَنامَ مَعَ رَجُلٍ مِنَ المُدْمِنينَ لِلْخَمْرِ . »

وَاسْتَطْرَدْتُ قائِلاً لِصاحِبِ الفُنْدُقِ : « أَرْجو أَنْ تُخْبِرَهُ بِأَنْ يَكُفَّ عَنِ التَّدْخينِ ، إِذْ لا يَروقُني أَنْ يُلازِمَني في الفِراشِ رَجُلٌ تَفوحُ مِنْهُ رائِحَةُ الدُّخانِ ؛ فَإِنَّ في ذَلِكَ خُطورَةً بالِغَةً . »

أَطْفَأَ كويكْوِغ غَلْيونَهُ وَدَعاني مَرَّةً أُخْرى بِكُلِّ أَدَبٍ لِلنَّوْمِ في الفِراشِ .

قُلْتُ لِصاحِبِ الفُنْدُقِ : « الآنَ تَسْتَطيعُ أَنْ تَتَفَضَّلَ بِالانْصِرافِ ، وَأَسْعَدَ اللَّهُ مَساءَكَ ! »

ثُمَّ أَوَيْتُ إلى الفِراشِ . وَلَمْ أَنَمْ في حَياتي قَطُّ أَفْضَلَ مِنْ نَوْمي في هَذِهِ اللَّيْلَةِ .

الفصل الثالث

كويكوغ

عِنْدَما اسْتَيْقَظْتُ في صَباحِ اليَوْمِ التَّالي ، لَمْ أَسْتَطِعِ القِيامَ مِنَ الفِراشِ ؛ فَقَدْ كُنْتُ واقِعاً تَحْتَ ضَغْطِ ذِراعِ كويكوغ الضَّخْمَةِ ، وَلا طاقَةَ لي بِرَفْعِها . وَحاوَلْتُ جاهِداً التَّخَلُّصَ مِنْهُ دونَ جَدْوى ، بِسَبَبِ قَبْضَتِهِ الشَّديدَةِ وَهُوَ مُسْتَغْرِقٌ في النَّوْمِ .

نادَيْتُهُ صائِحاً : « كويكوغ ! كويكوغ ! اسْتَيْقِظْ ! »

وَبَعْدَ كَثيرٍ مِنَ التَّقَلُّبِ وَالدَّورانِ وَالاسْتِمْرارِ في الكِفاحِ تَمَكَّنْتُ أَخيراً مِنْ أَنْ أَنْزِعَ نَفْسي مِنْ ثِقَلِ ذِراعِهِ . وَحينَئِذٍ اسْتَيْقَظَ كويكوغ وَجَلَسَ مُنْتَصِباً في السَّريرِ ، وَأَخَذَ يَنْظُرُ إِلَيَّ وَهُوَ يَفْرُكُ عَيْنَيْهِ كَما لَوْ كانَ قَدْ نَسِيَني تَماماً .

وَأَخيراً عَزَمَ عَلى النُّهوضِ مِنَ الفِراشِ . وَأَدْرَكْتُ أَنَّهُ لا يَعْرِفُ إِلَّا بِضْعَ كَلِماتٍ مِنَ اللُّغَةِ الإِنْجليزِيَّةِ ، عِنْدَما حاوَلَ بِبَعْضِ الأَصْواتِ

وَالإشاراتِ أنْ يُخْبِرَني بِأنَّهُ سيرْتَدي مَلابِسَهُ أوَّلاً ، ثُمَّ يُغادِرُ الغُرْفَةَ وَيَتْرُكُها لي . فَبادَرْتُ قائِلاً لَهُ : « شُكْرًا لَكَ ، يا كويكُوغ ! أشْكُرُكَ عَلى هَذا الأدَبِ الجَمِّ . »

ثُمَّ قُلْتُ لِنَفْسي : « حَقًّا ، إنَّكَ لا تَرى رَجُلاً مِثْلَ كويكُوغ كُلَّ يَوْمٍ . إنَّني مَحْظوظٌ جِدًّا لِمُقابَلَةِ هَذا المَخْلوقِ اللَّطيفِ الرَّقيقِ . »

أحْسَسْتُ أنَّني قَليلُ الذَّوْقِ وَأنا راقِدٌ في الفِراشِ ألاحِقُهُ بِنَظَراتي ، وَرَغْمَ ذَلِكَ أخَذْتُ أراقِبُهُ وَهُوَ يَرْتَدي مَلابِسَهُ بِفُضولٍ لَيْسَ مِنْ حُسْنِ الأخْلاقِ في شَيْءٍ ، وَعُذْري في ذَلِكَ أنّي لا أصادِفُ رَجُلاً مِثْلَ كويكُوغ كُلَّ يَوْمٍ ، فَهُوَ جَديرٌ بِالمُلاحَظَةِ ، وَسُلوكُهُ وَتَصَرُّفاتُهُ تُغْري بِالمُتابَعَةِ .

في أوَّلِ الأمْرِ ، وَضَعَ قُبَّعَتَهُ عَلى رَأسِهِ ، ثُمَّ أخَذَ يَبْحَثُ عَنْ حِذائِهِ .

سَألْتُ نَفْسي في شَغَفٍ : « ماذا سَيَفْعَلُ بَعْدَ ذَلِكَ ؟ »

لَقَدْ جَلَسَ تَحْتَ السَّريرِ لِيَرْتَدِيَ حِذاءَهُ . إنَّني لَمْ أسْمَعْ قَطُّ طَوالَ حَياتي عَنْ شَخْصٍ يُخْفي نَفْسَهُ وَهُوَ يَلْبَسُ الحِذاءَ .

أخيرًا ظَهَرَ ثانِيَةً وَقُبَّعَتُهُ مَكْبوسَةٌ فَوْقَ عَيْنَيْهِ . ثُمَّ بَدَأ في حِلاقَةِ

لِحْيَتِه ، مُسْتَعْمِلاً نَصْلَ الحَرْبَةِ الَّتي يَسْتَخْدِمُها في صَيْدِ الحيتانِ ، وَانْهَمَكَ في إزالَةِ شَعْرِ وَجْهِهِ بِشَفْرَتِها الحادَّةِ . وَبَعْدَ أنِ انْتَهى مِنْ هَذِهِ المُهِمَّةِ سارَ مَزْهُوًّا بِنَفْسِهِ ، خارِجًا مِنَ الحُجْرَةِ مُلْتَفًّا في مِعْطَفِهِ ، حامِلاً حَرْبَتَهُ .

ارْتَدَيْتُ مَلابِسي وَنَزَلْتُ عَلى الفَوْرِ إلى صالَةِ الفُنْدُقِ ، وَهُناكَ ابْتَدَرَني صاحِبُ الفُنْدُقِ بِالتَّحِيَّةِ وَالسَّلامِ .

رَدَدْتُ التَّحِيَّةَ قائِلاً : « صَباحُ الخَيْرِ . لَقَدْ سَخِرْتَ بِالتَّأكيدِ مِنْ تَصَرُّفاتي اللَّيْلَةَ الماضِيَةَ ! » ثُمَّ ابْتَسَمْتُ لأنَّني لا أسْتَطيعُ أنْ ألومَهُ عَلى شَيْءٍ . في مِثْلِ هَذِهِ الأحْوالِ فَإنَّ أفْضَلَ ما يُمْكِنُ عَمَلُهُ هُوَ إطْلاقُ ضِحْكَةٍ عالِيَةٍ ، وَهَذا ما واجَهَني بِهِ صاحِبُ الفُنْدُقِ ، وَلَكِنَّني لَمْ أبْدِ اهْتِمامًا بِأنْ أكونَ أنا المَقْصودَ بِهَذِهِ الضِّحْكَةِ وَما يُخْفي وَراءَها مِنْ مَغْزًى .

تَجَمَّعَ نُزَلاءُ الفُنْدُقِ في هَذِهِ الصّالَةِ الَّتي كادَتْ تَكْتَظُّ عَنْ آخِرِها . وَكانوا جَميعًا مِنْ صَيّادي الحيتانِ عَلى وَجْهِ التَّقْريبِ . إنَّهُمْ جَماعَةٌ مِنَ الرِّجالِ يَتَّصِفونَ بِالشَّجاعَةِ وَالقُوَّةِ ، وَمُعْظَمُهُمْ يُطْلِقونَ لِحاهُمْ .

وَعِنْدَما دَعانا صاحِبُ الفُنْدُقِ لِتَناوُلِ طَعامِ الإفْطارِ ، ذَهَبْنا جَميعًا إلى الحُجْرَةِ الأخْرى تَلْبِيَةً لِلنِّداءِ .

الفصل الرابع

الصَّديقُ كويكْوغ

قَضيْتُ طيلَةَ ذَلِكَ اليَوْمِ أَتجوَّلُ حَوْلَ الميناءِ الصَّغيرِ حتَّى المَساءِ ، ثُمَّ عُدْتُ إلى الفُنْدُقِ حَيْثُ وَجَدْتُ كويكْوغ جالِساً أمامَ المِدْفَأةِ . شَعَرْتُ بِالارْتياحِ عِنْدَما شاهَدْتُهُ مَرَّةً أخْرى ، وَجَلَسْتُ بِجِوارِهِ مُبْدِياً لَهُ بَعْضَ الإشاراتِ الوُدِّيَّةِ ، باذِلاً أَقْصى ما في وُسْعي لِلتَّحدُّثِ مَعَهُ ، ثُمَّ بادَرْتُ بِسُؤالِهِ : « هَلْ تَسْمَحُ لي أَنْ أُشارِكَكَ غُرْفَتَكَ مَرَّةً أخْرى هَذِهِ اللَّيْلَةَ ؟» فَبدا عَلَيْهِ السُّرورُ كَما تَوَقَّعْتُ .

أجابَ : « أَجَلْ . أَجَلْ .» ثُمَّ أَشْعَلَ غَلْيونَهُ وَجَلَسْنا مَعاً أمامَ المِدْفَأةِ نُدَخِّنُ في هُدوءٍ وَاسْتِرْخاءٍ . وَتَوَثَّقَتْ عُرى الصَّداقَةِ بَيْنَنا ، وَبَدا عَلَيْهِ أنَّهُ قَدِ ارْتاحَ لِصُحْبَتي ، الأَمْرُ الَّذي دَعاني بِكُلِّ تأكيدٍ إلى أنْ أُبادِلَهُ هذا الوُدَّ وَهذِهِ المَشاعِرَ الطَّيِّبَةَ .

وَبَعْدَ فَتْرَةٍ مِنَ الوَقْتِ ، أَخْرَجَ مِنْ جَيْبِهِ ما كانَ مَعَهُ مِن نُقودٍ

وَقسَّمَها جُزْأَيْنِ ، دَفَعَ بِجُزْءٍ مِنْهُما نَحْوي قائِلاً : « هذا لَكَ .»

قُلْتُ : « لا ، لَنْ آخُذَ نُقودَكَ .»

قالَ : « نَحْنُ نَقْتَسِمُ هَذِهِ النُّقودَ مَعاً .» ثُمَّ وَضَعَ نَصيبي في جَيْبي .

سَأَلْتُهُ : « أَخْبِرْني مِنْ أيِّ بَلَدٍ أَتَيْتَ ؟» فَأَخَذَ يَقُصُّ عَلَيَّ بِلُغَتِهِ الإنْجليزيَّةِ البَسيطَةِ ما يَلي :

« بِلادي عِبارَةٌ عَنْ جَزيرَةٍ نائِيَةٍ تُسَمَّى كوكوفوكو ، عَلى مَسافَةٍ بَعيدَةٍ جِهَةَ الجَنوبِ الغَرْبيِّ . وَالِدي مَلِكُ هَذِهِ الجَزيرَةِ ، وَبِصِفَتي ابْنَهُ الأكْبَرَ فَأَنا أَميرُها ، وَلَكِنَّني أَتوقُ إلى الانْطِلاقِ بَعيداً عَنِ الجَزيرَةِ ؛ أَمَلاً في مُشاهَدَةِ العالَمِ الخارِجيِّ . وَلَمْ يَكُنْ تَحْقيقُ هَذِهِ الرَّغْبَةِ بِالأَمْرِ اليَسيرِ ، لأنَّ والِدي لَمْ يَكُنْ لِيَسْمَحَ لي بِمُغادَرَةِ البِلادِ . وَفي النِّهايَةِ ، رَسَتْ إحْدى السُّفُنِ عَلى الجَزيرَةِ ؛ فَانْتَهَزْتُ هَذِهِ الفُرْصَةَ ، وَتَقَدَّمْتُ إلى رُبَّانِها ، فَوافَقَ عَلى أنْ يَأْخُذَني مَعَهُ شَرْطَ أنْ أَعْمَلَ عَلى السَّفينَةِ كَبَحَّارٍ عادِيٍّ . وَخِلالَ هَذِهِ الرِّحْلَةِ البَحْرِيَّةِ تَعَلَّمْتُ الكَثيرَ ، وَأَصْبَحْتُ أَحَدَ صَيَّادي الحيتانِ المُدَرَّبينَ .»

سَأَلْتُهُ مُسْتَفْسِراً : « وَماذا تَنْوي أنْ تَفْعَلَ الآنَ ؟»

أَجابَ قائِلاً : « أُريدُ أنْ أُبْحِرَ مَرَّةً أُخْرى بِأَسْرَعِ ما يُمْكِنُ .»

قُلْتُ : « إنَّني أيْضاً أريدُ أنْ أُبْحِرَ . وَغَداً أقْصِدُ جزيرَةَ نانْتوكِت ، حَيْثُ آمُلُ أنْ أجِدَ سَفينَةً أعْمَلُ عَلَيْها .»

« سأذْهَبُ مَعَكَ ، وَسَنُبْحِرُ مَعاً على سَفينَةٍ واحِدَةٍ .»

سَعِدْتُ سَعادَةً غامِرَةً بِهٰذِهِ الفِكْرَةِ ، لأنَّ كويكْوِغ أحَدُ الصيّادينَ الَّذين لَدَيْهِمْ دِرايَةٌ بِكُلِّ شَيْءٍ عَنْ سُفُنِ صَيْدِ الحيتانِ ، وَالرِّجالِ الَّذينَ يُبْحِرونَ عَلَيْها ، في حينِ أنَّني لا أعْرِفُ شَيْئاً عَنْ ذٰلِكَ ، وَمُصاحَبَتُهُ لي سَتُعاوِنُني كَثيراً في حَياتي الجَديدَةِ .

صِحْتُ قائِلاً : « كويكْوِغ ! هٰذِهِ فِكْرَةٌ رائِعَةٌ !»

وَتَصافَحْنا في سُرورٍ وَمَرَحٍ ابْتِهاجاً بِعَزْمِنا على العَمَلِ مَعاً .

وَعِنْدَما أقْبَلَ اللَّيْلُ ، صَعِدْنا إلى غُرْفَتِنا وَرَقَدْنا في فِراشِنا وَأطْفَأْنا المِصْباحَ ، وَفي الحالِ رُحْنا في نَوْمٍ عَميقٍ .

وَفي صَباحِ اليَوْمِ التّالي ، دَفَعْتُ حِسابَ الفُنْدُقِ لَنا نَحْنُ الاثْنَيْنِ مِنَ النُّقودِ الَّتي أعْطانيها كويكْوِغ أمْسِ . وَكانَ صاحِبُ الفُنْدُقِ لا يَفْتَأُ يَضْحَكُ على ما بَدَرَ مِنّي في اللَّيْلَةِ الأولى .

وَخاطَبَني قائِلاً بِتَعَجُّبٍ : « يا لَهُ مِنْ أمْرٍ يُثيرُ الدَّهْشَةَ وَالعَجَبَ ! هَلْ أصْبَحْتُما أصْدِقاءَ فَجْأةً ، وَلَنْ تَعودَ تَخافُ مِنْ كويكْوِغ بَعْدَ

الآنَ ؟»

ضَحِكْتُ وَأعْرَبْتُ لَهُ عَنِ امْتِناني لِحُسْنِ مُعامَلَتِهِ . وَغادَرْنا الفُنْدُقَ ، ثُمَّ اسْتَأْجَرْنا عَرَبَةً نَحْمِلُ عَلَيْها مَتاعَنا إلى القارِبِ الصَّغيرِ ، الَّذي سَيَنْقُلُنا إلى جَزيرَةِ نانْتوكِت .

الفصل الخامس

السَّفينةُ بِيكُوْد

عِنْدَما وَصَلْنا إلى نانْتوكِت كانَ اللَّيْلُ قَدْ خَيَّمَ على الجَزيرَةِ . وَكانَ صاحِبُ الفُنْدُقِ بِنيوبِدْفُورد قدْ أَوْصانا بِأَنْ نُقيمَ في فُنْدُقٍ مُريحٍ بالجَزيرَةِ ، يَمْلِكُهُ أخوهُ ، وَقالَ لَنا : « في ذَلِكَ الفُنْدُقِ سَتَتَناوَلانِ أَشْهى حَساءِ سَمَكٍ ، لَمْ تَتَذَوَّقا مِثْلَهُ في حَياتِكُما ! »

اسْتَقْبَلَتْنا زَوْجَةُ صاحِبِ الفُنْدُقِ السَّيِّدَةُ هاسّي بِتَرْحابٍ شَديدٍ ، وَقَدَّمَتْ لَنا حَساءَ السَّمَكِ المَشْهورَ في وَجْبَةِ العَشاءِ ، ثُمَّ أَعْطَتْنا مِصْباحاً نَصْعَدُ بِهِ إلى غُرْفَةِ النَّوْمِ . وَلَكِنْ عِنْدَما شَرَعْنا في الصُّعودِ قالَتْ لَنا : « مَمْنوعٌ أَخْذُ حِرابِ الصَّيْدِ إلى حُجْرَةِ النَّوْمِ . »

اسْتَفْسَرْتُ مُتَسائِلاً : « وَلَكِنْ لِماذا ؟ » وَكُنْتُ أَعْلَمُ أَنَّ كويكْوِغ لا يُحِبُّ أَنْ يَتْرُكَ حَرْبَتَهُ بَعيداً عَنْ بَصَرِهِ ، بَلْ يُحِبُّ أَنْ يَصْطَحِبَها مَعَهُ عَلى الدَّوامِ .

أَجابَتْ : « لِخُطورَةِ هَذا الأَمْرِ ؛ فَقَدْ حَدَثَ أَنْ وَجَدْنا أَحَدَ الأَشْخاصِ مِنْ نُزَلاءِ الفُنْدُقِ مَقْتولاً بِحَرْبَةٍ في جَسَدِهِ ، وَمُنْذُ ذَلِكَ الوَقْتِ قَرَّرْنا أَلا يَصْحَبَ أَيُّ فَرْدٍ مِثْلَ هَذِهِ الأَشْياءِ الخَطِرَةِ في الغُرَفِ لَيْلاً ، وَلِذَلِكَ ، يا سَيِّدُ كويكْوِغ ، فَإِنَّني سَأَحْتَفِظُ لَكَ بِها حَتَّى الصَّباحِ . »

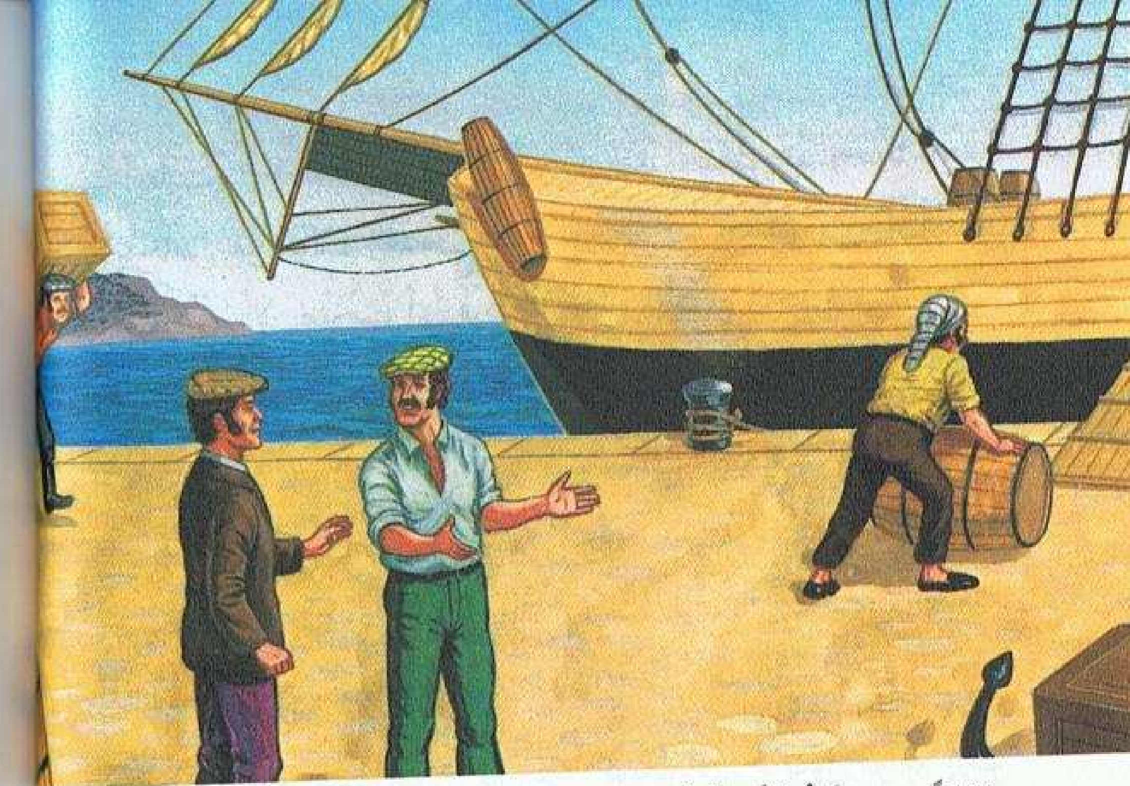
وَبِهَذا التَّعْليلِ الَّذي أَوْضَحَتْهُ زَوْجَةُ صاحِبِ الفُنْدُقِ كانَ عَلى كويكْوِغ أَنْ يَقْتَنِعَ بِذَلِكَ . أَمّا بِالنِّسْبَةِ لِلتِّمْثالِ الخَشَبِيِّ الصَّغيرِ الَّذي يَحْمِلُهُ كويكْوِغ في جَيْبِهِ ، فَكانَ يُطْلِقُ عَلَيْهِ اسْمَ يوجو .

وَفي صَباحِ اليَوْمِ التَّالي قالَ لي كويكْوِغ : « يَقولُ يوجو إِنَّكَ يَجِبُ أَنْ تَذْهَبَ بِمُفْرَدِكَ لِلْبَحْثِ عَنْ سَفينَةٍ نُبْحِرُ عَلَيْها . »

قُلْتُ : « وَلَكِنَّكَ عَلى عِلْمٍ بِكُلِّ ما يَتَعَلَّقُ بِسُفُنِ صَيْدِ الحيتانِ ، وَأَنا لا أَعْرِفُ شَيْئاً عَنْها ، وَعَلَيْكَ أَنْ تَقومَ بِنَفْسِكَ بِاخْتِيارِ السَّفينَةِ المُناسِبَةِ لَنا . »

أَجابَ كويكْوِغ : « هَذا مُسْتَحيلٌ . عَلَيْكَ أَنْتَ القِيامُ بِهَذِهِ المُهِمَّةِ بِمُفْرَدِكَ . »

وَهَكَذا تَرَكْتُ كويكْوِغ مَعَ يوجو وَغَلْيونِهِ ، وَذَهَبْتُ مُتَّجِهاً نَحْوَ البَحْرِ ، حَيْثُ سَأَلْتُ شَخْصاً أَوْ شَخْصَيْنِ مُعاوَنَتي في هَذا الصَّدَدِ ،



قائلاً : « هَلْ تَعْرِفُ أيَّ سفينةٍ توشِكُ على القِيامِ بِرِحْلَةٍ بَحْرِيَّةٍ لِلصَّيْدِ ؟»

قال أحَدُ الأشْخاصِ : « نَعَمْ . يوجَدُ ثَلاثُ سُفُنٍ مُسْتَعِدَّةٌ لِلإبْحارِ وَكُلُّها تَقومُ بِالتَّجْهيزاتِ اللاّزِمَةِ لِلْقِيامِ بِرِحْلاتٍ بَحْرِيَّةٍ تَسْتَغْرِقُ ثَلاثَ سَنَواتٍ .»

نَظَرْتُ إلى السُّفُنِ الثَّلاثِ ، وَاسْتَقَرَّ بَصَري على السَّفينةِ بيكوُد ، وَهِيَ سَفينَةٌ قَديمَةٌ وَصَغيرَةٌ نَوْعًا ما ، سَطْحُها غَيْرُ مُسْتَوٍ ، وَتُدارُ بِيَدٍ طَوِيلَةٍ مَصْنوعَةٍ مِنْ إحْدى عِظامِ فَكِّ الحوتِ ، وَيَقومُ أحَدُ البَحّارَةِ بِقِيادَةِ السَّفينةِ وَتَوْجيهِها بِتَحْريكِ هٰذِهِ اليَدِ .

قابَلْتُ أحَدَ ضُبّاطِ السَّفينةِ وَاتَّفَقْتُ مَعَهُ على أنْ أنْضَمَّ أنا وكويكوُغ إلى طاقَمِ البَحّارَةِ العامِلِ على السَّفينةِ ، إبّانَ رِحْلَتِها القادِمَةِ .

سَأَلْتُ : « أيْنَ رُبّانُ السَّفينةِ ؟»

« وَلِماذا تُريدُ أنْ تُقابِلَ الرُّبّانَ آخاب ؟ لَقَدِ اتَّفَقْنا وَيُمْكِنُكَ اعْتِبارُ نَفْسِكَ مِنَ الآنَ أحَدَ أفْرادِ بَحّارَةِ السَّفينةِ .»

« نَعَمْ ، وَلَكِنَّني أوَدُّ أنْ أراهُ .»

« إنَّهُ لَيْسَ في حالٍ طَيِّبَةٍ . وَلا أعْرِفُ بِالضَّبْطِ ماذا يَفْعَلُ الآنَ ، فَهُوَ يُقيمُ في مَنْزِلِهِ . وَلا يَبْدو أنَّهُ يُعاني مِنْ مَرَضٍ ما ، وَلَكِنَّ أحْوالَهُ لَيْسَتْ على ما يُرامُ أيْضاً .»

وَعِنْدَما بَدا على ضابِطِ السَّفينةِ عَدَمُ الرَّغْبَةِ في أنْ يَبوحَ بِأكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ ، كانَ لي أنْ أقْنَعَ بِهذا القَدْرِ مِنَ الإجابَةِ .

وَفي صَباحِ اليَوْمِ التّالي ، اصْطَحَبْتُ كويكوُغ إلى السَّفينةِ ، حَيْثُ قابَلْنا السَّيِّدَ ستاربَك كَبيرَ الضُّبّاطِ ، الَّذي يُعاوِنُهُ ضابِطانِ آخَرانِ ، وَبِالطَّبْعِ كُلُّهُمْ يَعْمَلونَ تَحْتَ قِيادَةِ رُبّانِ السَّفينةِ .

قَدَّمْتُ كويكوُغ إلى السَّيِّدِ ستاربَك قائلاً : « هٰذا صَديقي الَّذي سَيُبْحِرُ مَعَنا .»

سَألَهُ : « هَلْ أنْتَ صَيَّادُ حيتانٍ ؟»

أجابَ كويكْوِغ : « نَعَمْ ، وَلَدَيَّ خِبْرَةٌ واسِعَةٌ في هَذا المَجالِ .»

حِينَئِذٍ بَدا عَلى الضّابِطِ اغْتِباطُهُ بِنا . وَشَعَرْتُ بِدَوْري أنْ الحَظَّ قَدْ حالَفَنا بِالعَمَلِ بِهَذِهِ السَّفينَةِ .

قِيلَ لَنا إنَّ السَّفينَةَ سَتُبْحِرُ في غُضونِ بِضْعَةِ أيّامٍ ، وَسَتَسْتَغْرِقُ رِحْلَتُها ثَلاثَ سَنَواتٍ ، وَكافَّةُ احْتِياجاتِنا خِلالَ هَذِهِ المُدَّةِ الطَّويلَةِ يَقْتَضي الأمْرُ تَخْزينَها في السَّفينَةِ قَبْلَ الإقْلاعِ . وَمِنَ الواجِبِ ألا نَنْسى شَيْئًا ؛ فَإنَّ سُفُنَ صَيْدِ الحيتانِ أكْثَرُ السُّفُنِ تَعَرُّضًا لِلْحَوادِثِ وَالمَخاطِرِ ، وَأكْثَرُها فَقْدًا لِلْمُعَدّاتِ . وَلِهَذا السَّبَبِ عَلَيْنا أنْ نَأْخُذَ مَعَنا مَزيدًا مِنَ المُتَطَلَّباتِ . وَقَدْ تَمَّ تَزْويدُ السَّفينَةِ بِقَوارِبَ وَحِرابٍ إضافِيَّةٍ ، وَمَزيدٍ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ تَقْريبًا ، فيما عَدا رُبّانَ السَّفينَةِ ، فَلَيْسَ لَها إلاّ رُبّانٌ واحِدٌ .

الفصل السادس

الرُّبّانُ آخاب

تَرَدَّدْنا أنا وَكويكْوِغ عَلى السَّفينَةِ بِيكْوُد عِدَّةَ مَرّاتٍ خِلالَ فَتْرَةِ إعْدادِها لِلإقْلاعِ ، وَلَكِنَّنا رَغْمَ ذَلِكَ لَمْ نُشاهِدِ الرُّبّانَ ، الأمْرُ الَّذي دَعاني لِلسُّؤالِ : « كَيْفَ حالُ الرُّبّانِ آخاب ؟ وَمَتى سَيَعودُ إلى السَّفينَةِ ؟» وَكانَتِ الإجابَةُ : « إنَّهُ في تَحَسُّنٍ ، وَنَحْنُ نَتَوَقَّعُ قُدومَهُ بَيْنَ لَحْظَةٍ وَأُخْرى ؟»

إنَّني لا أحِسُّ مِنْ أعْماقي بِالسَّعادَةِ الحَقيقِيَّةِ ؛ لاقْتِرابِ مَوْعِدِ بِدايَةِ رِحْلَةٍ بَحْرِيَّةٍ طَويلَةٍ ، دونَ أنْ أتَعَرَّفَ عَلى الرُّبّانِ الَّذي سَأعْمَلُ تَحْتَ قِيادَتِهِ ، وَلَكِنّي لا أسْتَطيعُ أنْ أفْعَلَ شَيْئًا إزاءَ ذَلِكَ .

وَفي اليَوْمِ السّابِقِ عَلى إبْحارِنا ، اسْتَدْعانا كَبيرُ ضُبّاطِ السَّفينَةِ السَّيِّدُ ستارْبَك . وَكَمْ أُعْجِبْتُ بِهِ لِما يَتَمَيَّزُ بِهِ مِنْ هُدوءٍ وَرَزانَةٍ !

قالَ لَنا : « هَذا هُوَ القارِبُ المُخَصَّصُ لي . وَلَنْ أصْحَبَ مَعي

فيهِ أيَّ رَجُلٍ لا يَخافُ مِنَ الحوتِ ، فَإِنَّ الحمْقى مِنَ الرِّجالِ فَقطْ هُمُ الّذينَ يَسْتهينونَ بِخُطورَةِ الحيتانِ وَلا يَخْشَوْنَها .» ثُمَّ نادى ستارْبك كويكْوغ قائلاً : « لَقدْ سَمِعْتُ أنَّكَ صَيّادُ حيتانٍ ماهِرٌ . وَقدِ اخْترْتُكَ لِتصْحَبَني في قارِبي .»

شَعرْت بِالفخْرِ لاخْتيارِ صَديقي لِلْعَملِ مَعَ كَبيرِ الضُّبّاط ، المَسْئولِ عَنِ القارِبِ الأَوَّلِ الّذي يُغادِرُ سَفينَةَ الصَّيْدِ لِمُتابَعَةِ الحيتانِ عِنْدَ اصْطِيادِها .

كَذلِكَ كانَ لِكُلٍّ مِنَ الضّابِطَيْنِ الآخَرَيْنِ ، اللَّذَيْنِ يُدْعَيانِ ستاب وَفلاسْك ، قارِبٌ . وَمِنَ المُعْتادِ أنْ يَخْتارَ هؤُلاءِ الضُّبّاطُ جَميعاً الصَّيّادينَ الّذينَ يَصْحَبونَهُمْ في قَوارِبِهِمْ .

وَقَعَ اخْتيارُ الضّابِطَيْنِ عَلى صَيّادَيْنِ آخَرَيْنِ هُما تاشْتيغو أَحَدُ الهُنودِ الحُمْرِ ، وَ داغو وَهُوَ رَجُلٌ ضَخْمٌ أسْوَدُ البَشَرَةِ .

وَفي صَباحِ اليَوْمِ التّالي اسْتَيْقَظْنا أنا وَكويكْوغ في ساعَةٍ مُبَكِّرَةٍ جِدًّا ، وَكانَ الظَّلامُ حالِكًا عِنْدَما اقْتَرَبْنا مِنَ السَّفينَةِ . وَقَدِ اعْتَرَتْني الدَّهْشَةُ حينَ سَمِعْتُ صَوْتَ وَقْعِ أقْدامٍ تَجْري أمامَنا .

سَأَلْتُ كويكْوغ : « هَلْ هؤُلاءِ البَحّارَةُ مُتَّجِهونَ إلى سَفينَتِنا ؟ رُبَّما تُقْلِعُ السَّفينَةُ قَبْلَ الفَجْرِ ، وَنَكونُ بِذلِكَ قَدْ تَأَخَّرْنا عَنْ

مَوْعِدِها .»

حينَئِذٍ أَسْرَعْنا الخُطى حَتّى وَصَلْنا إلَيْها في الحالِ ، وَلكِنَّنا لَمْ نَرَ أَحَدًا مِنَ البَحّارَةِ ، بَلْ عَلى العَكْسِ وَجَدْناهُمْ يَغُطّونَ في نَوْمٍ عَميقٍ فَأَيْقَظْناهُمْ ، وَذَكَرَ لي كويكْوغ أنَّهُ لَمْ يَسْمَعْ وَقْعَ الأَقْدامِ الَّتي طَرَقَتْ أُذُنَيَّ مِنْ قَبْلُ .

قيلَ لَنا إنَّ الرُّبّانَ وَصَلَ اللَّيْلَةَ الماضِيَةَ ، وَإنَّهُ مَوْجودٌ حالِيًا عَلى السَّفينَةِ . وَلَمْ يَمْضِ وَقْتٌ طَويلٌ حَتّى أَقْبَلَ باقي البَحّارَةِ ، وَأَصْبَحَتِ السَّفينَةُ عَلى أُهْبَةِ الاسْتِعْدادِ لِلإِبْحارِ .

غادَرْنا جَزيرَةَ نانْتوكِت في صَباحِ يَوْمٍ تَلَبَّدَتِ السَّماءُ فيهِ بِالغُيومِ ، الَّتي حَجَبَتِ الشَّمْسَ . وَلِأَوَّلِ مَرَّةٍ وَقَعَ بَصَري عَلى رُبّانِ السَّفينَةِ الَّذي بَدا لي في صورَةِ رَجُلٍ حادِّ الطَّبْعِ قَوِيِّ الشَّكيمَةِ . عَلى أَحَدِ جانِبَيْ وَجْهِهِ عَلامَةٌ بَيْضاءُ طَويلَةٌ ، هِيَ في الغالِبِ أَثَرُ التِئامِ جُرْحٍ قَديمٍ امْتَدَّ حَتّى رَقَبَتِهِ ، وَرُبَّما امْتَدَّ أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ تَحْتَ مَلابِسِهِ . كانَ واقِفًا عَلى سَطْحِ السَّفينَةِ لا يَتَفَوَّهُ بِكَلِمَةٍ لِأَحَدٍ . وَلاحَظْتُ أَنَّهُ فاقِدٌ إِحْدى ساقَيْهِ ، واسْتَبْدَلَ بِها ساقًا اصْطِناعِيَّةً مِنْ إِحْدى عِظامِ الحوتِ المَصْقولَةِ ، وَاعْتادَ أَنْ يُثَبِّتَها في فُتْحَةٍ عَلى سَطْحِ السَّفينَةِ ، حَيْثُ يَسْتَطيعُ بِهذِهِ الطَّريقَةِ أَنْ يَقِفَ في تَوازُنٍ ثابِتٍ

مُتطلّعاً إلى البَحْرِ .

وَقَفَ الرُّبّانُ آخاب على سَطْحِ السَّفينَةِ بِيكْوُد وَأمامَهُ جَميعُ رِجالِهِ مِنْ ضُبّاطٍ وَبَحّارَةٍ . وَرَفَعَ يَدَهُ مُمْسِكاً بِقِطْعَةٍ مِنَ النُّقودِ الذَّهَبِيَّةِ وَنادى فيهِمْ : « أَنْصِتوا جَيِّداً . إنَّ أَوَّلَ رَجُلٍ يُشاهِدُ الحوتَ الأَبْيَضَ سَيَفوزُ بِهذِهِ العُمْلَةِ الذَّهَبِيَّةِ جائِزَةً لَهُ . »

صاحَ الرِّجالُ في فَرَحٍ : « مُوبي دِك ، الحوتُ الأَبْيَضُ ، سَنُلاحِقُهُ في كُلِّ مَكانٍ بِالبَحْرِ حَتّى نَقْضِيَ عَلَيْهِ ! »

« نَعَمْ ، إنَّهُ الحوتُ الأَبْيَضُ . ابْحَثوا عَنْهُ ، يا رِجالُ ، وَعِنْدَما تَجِدونَهُ صيحوا بِأَعْلى أَصْواتِكُمْ . أَخْبِروني ، ماذا تَقولونَ ؟ »

صاحَ الرِّجالُ : « ظَهَرَ الحوتُ اللَّعينُ ! ظَهَرَ بِأَنْفِهِ فَوْقَ سَطْحِ الماءِ ! ظَهَرَ تَيّارُ الرَّذاذِ الَّذي يَنْفُسُهُ مِنْ أَنْفِهِ عالِياً فَوْقَ سَطْحِ الماءِ ! »

رَدَّ عَلَيْهِمُ الرُّبّانُ : « ذاكَ ما تَقولونَهُ بِالضَّبْطِ ، إنَّهُ مُوبي دِك ؛ الَّذي انْتَزَعَ ساقي مِنْ جَسَدي . إنَّهُ الحوتُ الأَبْيَضُ المَلْعونُ الَّذي قَهَرَني وَتَرَكَني بِساقٍ واحِدَةٍ حَتّى آخِرِ أَيّامي . لا بُدَّ مِنَ الانْتِقامِ مِنْهُ . »

ثُمَّ صاحَ بِأَعْلى صَوْتِهِ في غَضَبٍ وَمَرارَةٍ : « سَأُطارِدُهُ في كُلِّ أَنْحاءِ العالَمِ ، قَبْلَ أَنْ أَقْطَعَ الأَمَلَ في العُثورِ عَلَيْهِ . ماذا تَرَوْنَ أَيُّها

الرِّجالُ ؟ هَلْ نَتَّفِقُ عَلى ذلِكَ مِنَ الآنَ ؟ أَعْتَقِدُ أَنَّ لَدَيْكُمْ مِنَ الشَّجاعَةِ الفائِقَةِ ما يُؤَهِّلُكُمْ لِهذا الأَمْرِ ! »

هَتَفَ البَحّارَةُ في حَماسٍ : « حَقّاً ! حَقّاً ! مُراقَبَةٌ صارِمَةٌ ، وَيَقَظَةٌ ساهِرَةٌ ، وَتَطَلُّعٌ لاصْطِيادِ هذا الحوتِ المُفْتَرِسِ دونَ كَلَلٍ أَوْ مَلَلٍ . »

قالَ الرُّبّانُ في اطْمِئْنانٍ : « بارَكَ اللّهُ فيكُمْ ، يا رِجالُ . وَلْنَشْرَبْ جَميعاً نَخْبَ هذا الوَعْدِ . »

في ظِلِّ اللِّقاءِ العاصِفِ بَيْنَ الرُّبّانِ وَالبَحّارَةِ ، بَدَتْ عَلى السَّيِّدِ ستارْبَك مَلامِحُ الشَّكِّ وَالرِّيبَةِ ، الأَمْرُ الَّذي لَفَتَ نَظَرَ الرُّبّانِ ؛ فَسَأَلَهُ مُسْتَفْسِراً : « ماذا دَهاكَ ، يا سَيِّدُ ستارْبَك ؟ لِماذا يَبْدو وَجْهُكَ عابِساً ؟ أ لا تَنْوي اصْطِيادَ الحوتِ الأَبْيَضِ ؟ »

أَجابَ ستارْبَك : « إنَّني لَعَلى اسْتِعْدادٍ تامٍّ لِلْقِيامِ بِأَيِّ مُهِمَّةٍ . وَلكِنَّ الانْتِقامَ مِنْ حوتٍ لا يَخْتَلِفُ عَنِ الجُنونِ في شَيْءٍ . لا أُوافِقُ عَلى ذلِكَ ، فَهذا أَمْرٌ غَيْرُ طَبيعِيٍّ عَلى الإِطْلاقِ . »

« هذا كَلامٌ فارِغٌ ؟ إنَّني أَمْقُتُ هذا الحوتَ ، وَسَأَنْتَقِمُ مِنْهُ نَظيرَ ما أَلْحَقَهُ بي مِنْ عاهَةٍ مُسْتَديمَةٍ . »

هَمَسَ ستارْبَك في فَزَعٍ : « فَلْيَحْفَظْنا اللّهُ جَميعاً ! »

وَصاحَ الرُّبّانُ آخاب : « اشْربوا جَميعاً نَخْبَ ما تَواعَدْنا عَلَيْهِ !» وَشَرِبَ الرِّجالُ وَهُمْ يَتَصايَحونَ وَيَلْعَنونَ عَدُوَّهُمُ الحوتَ الأَبْيَضَ ، فيما عَدا ستارْبَك وَحْدَهُ ، الَّذي بَدا وَجْهُهُ شاحِباً ، فَقَدْ تَرَكَ شَرابَهُ دونَ أَنْ تَلْمِسَهُ شَفَتاهُ .

الفصل السابع

مُوبي دِك الحوتُ الأَبْيَض

كُنْتُ واحِداً مِنْ أُولَئِكَ البَحّارَة ، الَّذينَ هَتَفوا وَشَرِبوا . وَلِلْحَقِّ كانَ هُتافي وَصِياحي أَعْلى مِنْ أَصْواتِهِمْ ، رُبَّما بِسَبَبِ ما أَحْسَسْتُ بِهِ مِنْ خَوْفٍ شَديدٍ ، فَلَمْ أَسْمَعْ قَطُّ عَنْ ذَلِكَ الحوتِ القاتِلِ مِنْ قَبْلُ ، وَلَكِنّي وَجَميعَ البَحّارَةِ الآخَرينَ - بِاسْتِثْناءِ ستارْبَك - قَدْ أَقْسَمْنا عَلى الانْتِقامِ مِنْهُ . وَفيما بَعْدُ أَخْبَرَني البَحّارَةُ قِصَّةَ مُوبي دِك .

لَمْ يَرَهُ كَثيرٌ مِنَ الرِّجالِ ، وَالقَليلُ مِنْهُمْ لِلآنَ هُمُ الَّذينَ واجَهوهُ وَقاتَلوهُ . وَأُولَئِكَ الَّذينَ حاوَلوا اصْطِيادَهُ أُصيبوا بِكَسْرِ أَطْرافِهِمْ أَوْ فَقْدِ إِحْداها ، وَبَعْضُهُمْ لَقِيَ حَتْفَهُ أَثْناءَ هَذِهِ المُحاوَلَةِ ، بَلْ إِنَّ هَذِهِ القِصَصَ قَدْ مَلأَتْ كَثيراً مِنَ البَواسِلِ بِالذُّعْرِ وَالفَزَعِ .

مُوبي دِك حوتٌ ضَخْمٌ مُفْتَرِسٌ ، لَهُ رَأْسٌ أَبْيَضُ غَريبُ الشَّكْلِ

وَظَهْرٌ أبْيَضُ مُقَوَّسٌ . وَلَمْ يَكُنْ حَجْمُهُ غَيْرُ المَألوفِ أوْ لَوْنُهُ هُما مَبْعَثَ الخَوْفِ وَالهَلَعِ فَحَسْبُ ، بَلْ كانَتْ مَهارَتُه الفائِقَةُ في إلْحاقِ الضَّرَرِ وَالمَصائِبِ بِمُقاتِليهِ ، أيْضاً هِيَ مَصْدَرَ الخَطَرِ ؛ إذْ كانَ عَلى قَدْرٍ مِنَ المَهارَةِ لا يَقِلُّ عَمَّا يَتَمَيَّزُ بِهِ الصَّيّادونَ الَّذينَ يُلاحِقونَهُ أمَلاً في اصْطِيادِهِ ، فَضْلاً عَنْ أنَّهُ أقْوى مِنْهُمْ وَأشَدُّ عُنْفاً وَضَراوَةً . فَفي بَعْضِ الأحْيانِ بَيْنَما تُسْرِعُ قَوارِبُ الصَّيْدِ مُتَعَقِّبَةً إيّاهُ ، إذا بِهِ تارَةً يَسْتَديرُ فَجْأةً مُتَّجِهاً مُباشَرَةً نَحْوَها مُصْطَدِماً بِها ، حَيْثُ يُحيلُها إلى قِطَعٍ مُتَناثِرَةٍ ، قاذِفاً بِمَنْ فيها مِنَ الصَّيّادينَ في البَحْرِ ، وَتارَةً أُخْرى يَرُدُّ هَذِهِ القَوارِبَ دافِعاً إيّاها إلى التَّراجُعِ نَحْوَ سَفينَةِ الصَّيْدِ في فَزَعٍ وَاضْطِرابٍ .

قال لي كويكوغ : « لَقَدْ أخْبَرَني البَحّارَةُ أنَّ الرُّبّانَ آخاب – في مُحاوَلاتٍ سابِقَةٍ لاصْطِيادِ مُوبي دِك – فَقَدَ ثَلاثَةَ قَوارِبَ وَسَقَطَ جَميعُ مَنْ فيها مِنَ البَحّارَةِ في البَحْرِ ، وَعِنْدَما هَجَمَ الرُّبّانُ عَلى الحوتِ وَأصابَهُ بِخَنْجَرِهِ ، قَضَمَ الحوتُ ساقَهُ بِأسْنانِهِ القَوِيَّةِ ، وَفَصَلَها عَنْ جِسْمِهِ . وَمُنْذُ ذَلِكَ الحينِ ، جُنَّ جُنونُ الرُّبّانِ . وَعِنْدَما أصْبَحَ قادِراً عَلى السَّيْرِ مَرَّةً أُخْرى بِساقٍ اصْطِناعِيَّةٍ مِنْ إحْدى عِظامِ

الحُوتِ ، لَمْ يُفَكِّرْ إلا في الانْتِقامِ مِنْ ذَلِكَ الحوتِ الأبْيَضِ .»

هَذا هُوَ المَخْلوقُ الَّذي أقْسَمْنا أنا وَالبَحّارَةُ الآخَرونَ عَلى اصْطِيادِهِ وَالظَّفَرِ بِهِ .

الفصل الثامن

الاسْتِعْدادُ لِلصَّيْد

أَبْحَرَتْ سَفينَتُنا طَوالَ عِدَّةِ أَسابيعَ لَمْ نُشاهِدْ خِلالَها أَيَّةَ حيتانٍ . في أَوَّلِ الأَمْرِ كانَ الطَّقْسُ بارِدًا ، ثُمَّ أَصْبَحَ أَكْثَرَ دِفْئًا فيما بَعْدُ . وَأَضْفَتِ الأَيَّامُ الَّتي سَطَعَتْ فيها الشَّمْسُ ، عَلى الرِّحْلَةِ بَهْجَةً وَسُرورًا . وَعَكَفْنا جَميعًا عَلى إِعْدادِ قَوارِبِ الصَّيْدِ وَتَجْهيزِها اسْتِعْدادًا لِلْعَمَلِ .

حَدَّثَني أَحَدُ البَحَّارَة قائِلاً : « إِنَّ السَّيِّدَ ستاب الضَّابِطَ الثَّاني رَجُلٌ شُجاعٌ باسِلٌ ، يُدَخِّنُ طَوالَ الوَقْتِ . وَلا أَذْكُرُ أَنَّني رَأَيْتُهُ دونَ غَلْيونِهِ في فَمِهِ وَلَوْ مَرَّةً واحِدَةً ، بَلْ أَعْتَقِدُ أَنَّهُ يَذْهَبُ لِلنَّوْمِ وَهُوَ عَلى هَذِهِ الحالَةِ !» وَضَحِكَ كويكْوِغ عِنْدَما سَمِعَ هَذا الحَديثَ .

قالَ : « سَأُصاحِبُ السَّيِّدَ ستاربَك في القارِبِ الأَوَّلِ ، الَّذي يُغادِرُ السَّفينَةَ عِنْدَ اكْتِشافِ وُجودِ أَحَدِ الحيتانِ ، وَعِنْدَما يَقْتَرِبُ

قارِبُنا مِنْهُ بِدَرَجَةٍ كافِيَةٍ سَأَرْشُقُ حَرْبَتي في أَحَدِ جَوانِبِهِ .»

كانَ السَّيِّدُ ستاب مَسْئولاً عَنِ القارِبِ الثَّاني ، وَقَدِ اخْتارَ تاشْتيغو لِيَكونَ الصَّيَّادَ الَّذي يُرافِقُهُ . أَمَّا القارِبُ الثَّالِثُ فَكانَ مُخَصَّصًا لِلضَّابِطِ فلاسك وَمُرافِقِهِ الصَّيَّاد داغو الرَّجُلِ الأَسْوَدِ .

قُلْتُ : « إِنَّ هَؤُلاءِ الضُّبَّاطَ الثَّلاثَةَ لَهُمْ دَوْرٌ هامٌّ لِلْغايَةِ .»

رَدَّ كويكْوِغ : « أَجَلْ ؛ فَنَجاحُ الرِّحْلَةِ يَتَوَقَّفُ عَلَيْهِمْ ، وَكَمِّيَّةُ الزَّيْتِ الَّذي نَسْتَخْرِجُهُ مِنَ الحيتانِ يَعْتَمِدُ عَلى بَراعَتِهِمْ . وَلَكِنَّ الرِّجالَ الَّذينَ يَقومونَ بِعَمَلِيَّةِ التَّجْديفِ في القَوارِبِ لا يُمْكِنُ إِغْفالُ أَهَمِّيَّتِهِم البالِغَةِ أَيْضًا .»

قُلْتُ : « لَقَدْ سَمِعْتُ أَصْواتًا غَريبَةً آتِيَةً مِنْ داخِلِ السَّفينَةِ ، وَيَبْدو كَما لَوْ كانَ هُناكَ رِجالٌ في باطِنِها وَلَكِنَّ عُيونَنا لَمْ تَقَعْ عَلَيْهِم .» وَهُنا تَذَكَّرْتُ وَقْعَ الخُطُواتِ الَّتي سَمِعْتُهُ بِالقُرْبِ مِنَ السَّفينَةِ في جَزيرَةِ نانتوكِت قَبْلَ الإِقْلاعِ .

قالَ كويكْوِغ وَهُوَ يَنْظُرُ إِلَيَّ: « وَأَنا أَيْضًا سَمِعْتُ هَذِهِ الأَصْواتَ وَلا أَفْهَمُ لَها مَعْنًى . لا بُدَّ مِنْ وُجودِ شَيْءٍ غامِضٍ هُنا .»

وَأَشارَ كويكْوِغ إِلى قارِبٍ إِضافِيٍّ عَلى سَطْحِ السَّفينَةِ وَقالَ : « إِنَّ البَحَّارَةَ يَقولونَ إِنَّهُ قارِبُ الرُّبَّانِ . وَلا أَعْلَمُ سَبَبًا لِوُجودِهِ هُناكَ ؛

فَلَيْسَ مِنَ المَألوفِ أنْ يُخَصَّصَ لِلرُّبّانِ قارِبٌ لِلصَّيْدِ ، فَإنَّ رَبابِنَةَ السُّفُنِ عادَةً لا يُغادِرونَ سُفُنَهُمْ لِصَيْدِ الحيتانِ .»

الفصل التاسع

ظُهورُ الحوتِ الأبْيَض

يوجَدُ على الدَّوامِ عِنْدَ قِمّةِ صاري السَّفينَةِ مُراقِبٌ يَقومُ بِمُهِمَّةِ الاسْتِطْلاعِ وَمُراقَبَةِ ظُهورِ الحيتانِ . وَيَتَناوَبُ البَحّارَةُ هَذا العَمَلَ ، كُلٌّ في دَوْرِهِ مُدَّةَ ساعَتَيْنِ .

وَفي ظِلِّ الجَوِّ الدّافِئِ كانَتْ نَوْبَةُ المُراقَبَةِ عِنْدَ قِمَّةِ الصّاري عَمَلاً يَبْعَثُ عَلى الابْتِهاجِ وَالاسْتِمْتاعِ ، حَيْثُ يَقِفُ المُراقِبُ عَلى ارْتِفاعِ ثَلاثينَ مِتْراً فَوْقَ سَطْحِ السَّفينَةِ ، يُشْرِفُ عَلى مَساحَةٍ شاسِعَةٍ مِنَ البَحْرِ .

كَذَلِكَ تَمْتازُ هَذِهِ المُهِمَّةُ أيْضاً بِعَدَمِ وُجودِ أيَّةِ مَتاعِبَ ، حَيْثُ لا يَسْمَعُ المُراقِبُ أيَّةَ أخْبارٍ ، وَلَيْسَ هُناكَ فُرْصَةٌ لِجِدالٍ أوْ عِراكٍ مَعَ أحَدٍ ، وَلا حاجَةَ بِهِ لِلتَّفْكيرِ في النُّقودِ أوْ في وَجَباتِ الطَّعامِ ، وَلا بُدَّ لَهُ مِنَ التَّرْكيزِ عَلى مُراقَبَةِ الحيتانِ فَحَسْبُ . وَتَنْحَصِرُ الأوامِرُ

المُكَلَّفُ بِتَنْفيذِهَا في الحِرْصِ عَلى القِيامِ بِمُراقَبَةٍ صارِمَةٍ دائِمَةٍ ، وَإطْلاقِ صَيْحَةٍ عالِيَةٍ في حالَةِ ظُهورِ أَحَدِ الحيتانِ .

ماذا كانَ يَفْعَلُ الرُّبّانُ آخاب ؟ كانَ يَجْلِسُ كُلَّ يَوْمٍ بِمُفْرَدِهِ عاكِفًا عَلى دِراسَةِ خَرائِطِهِ ، باحِثًا عَنْ أَفْضَلِ الأَماكِنِ لاصْطِيادِ الحوتِ الأَبْيَضِ ، الَّذي يَتَحَرَّقُ شَوْقًا لِلظَّفَرِ بِهِ والانْتِقامِ مِنْهُ . كانَ عَلى دِرايَةٍ تامَّةٍ بِحَرَكاتِ المَدِّ وَالجَزْرِ في البِحارِ ، وَباسْتِطاعَتِهِ أَنْ يَتَنَبَّأَ بِتَحَرُّكاتِ الأَسْماكِ الَّتي تَتَغَذَّى عَلَيْها الحيتانُ ، كَما كانَ يَعْلَمُ أَنَّ الحيتانَ تُهاجِرُ كالطُّيورِ بِطَريقَةٍ مُنْتَظِمَةٍ في رِحْلاتٍ عَبْرَ البِحارِ .

وَبَعْدَ ظُهْرِ يَوْمٍ حارٍّ كانَتِ السَّماءُ فيهِ مُلَبَّدَةً بِالسُّحُبِ ، طَرَقَ سَمْعي صَوْتٌ غَريبٌ ، وَحانَتْ مِنّي الْتِفاتَةٌ نَحْوَ أَعْلى السَّفينَةِ ؛ فَرَأَيْتُ تاشْتيغو عِنْدَ قِمَّةِ الصّاري يَقومُ بِالمُراقَبَةِ ، مائِلاً بِجِسْمِهِ في لَهْفَةٍ إلى الأَمامِ ، مُشيرًا بِيَدِهِ المُمْتَدَّةِ إلى أَبْعَدِ مَدًى ، مُرَدِّدًا صَيْحَتَهُ بِصَوْتٍ عالٍ عَجيبٍ : « هُناكَ تَظْهَرُ الحيتانُ فَوْقَ سَطْحِ الماءِ ! هُناكَ ! هُناكَ !»

« أَيْنَ ؟»

« هُناكَ نَحْوَ الجَنوبِ ، عَلى مَسافَةِ ثَلاثَةِ كيلومِتْراتٍ تَقْريبًا ،

حَيْثُ يَظْهَرُ أَكْثَرُ مِنْ واحِدٍ مِنْها .»

وَفي لَمْحِ البَصَرِ انْدَفَعَ كُلُّ واحِدٍ مِنّا لإِعْدادِ قَوارِبِ الصَّيْدِ الثَّلاثَةِ ، الَّتي أَخَذَتْ تَتَأَرْجَحُ مُعَلَّقَةً فَوْقَ سَطْحِ البَحْرِ ، وَبَحّارَتُها يُلْقونَ أَنْفُسَهُمْ بِداخِلِها .

وَفَجْأَةً انْطَلَقَتْ صَيْحَةُ تَعَجُّبٍ في السَّفينَةِ ، وَاسْتَدارَ كُلُّ فَرْدٍ ناظِرًا إلى الرُّبّانِ آخاب وَخَمْسَةِ رِجالٍ كالأَشْباحِ السَّوْداءِ تُحيطُ بِهِ ، لا يَدْري أَحَدٌ مِنّا مِنْ أَيِّ مَكانٍ خَفِيٍّ ظَهَروا ! وَهُنا تَذَكَّرْتُ وَقْعَ الأَقْدامِ الغَريبَةِ وَالضَّجَّةَ الَّتي سَمِعْتُها مِنْ قَبْلُ .

قادَهُمْ آخاب فَوْرًا إلى قارِبِهِ ، وَبَدا واحِدٌ مِنْهُمْ كَما لَوْ كانَ قائِدَهُمْ ، يَعْلو رَأْسَهُ شَعْرٌ أَبْيَضُ . وَظَنَنْتُ – بِسَبَبِ لَوْنِ بَشَرَتِهِ – أَنَّهُ مِنْ مُواطِني إحْدى جُزُرِ المُحيطِ الهادي . وَبَيْنَما نَحْنُ ناظِرونَ إِلَيْهِمْ صاحَ الرُّبّانُ : « هَلْ أَنْتُمْ مُسْتَعِدّونَ ، يا فَيْضَ اللهِ ؟»

أَجابَ الرَّجُلُ ذو الشَّعْرِ الأَبْيَضِ : « عَلى أَتَمِّ اسْتِعْدادٍ .»

أَصْدَرَ الرُّبّانُ أَوامِرَهُ : « أَنْزِلوا القَوارِبَ ! هَلْ تَسْمَعونَ ؟ انْطَلِقوا بِها إلى البَحْرِ !» وَأَبْحَرَتِ القَوارِبُ الثَّلاثَةُ بَعيدًا عَنِ السَّفينَةِ وَرَكِبَ آخاب القارِبَ الرّابِعَ مَعَ الرِّجالِ الخَمْسَةِ الغُرَباءِ ، الَّذينَ أَخَذوا يُجَدِّفونَ مُنْطَلِقينَ في البَحْرِ .

أثارَ ظُهورُ هؤلاءِ الرِّجالِ الغُرَباءِ الشُّعورَ بِالخَوفِ بَيْنَ بَحّارَةِ السَّفينَةِ . وَلَمْ يُصَدِّقْني أَحَدٌ عِنْدَما تَحَدَّثْتُ عَنِ الأصْواتِ الَّتي سَمِعْتُها وَكَأنَّها آتِيَةٌ مِنْ داخِلِ السَّفينَةِ . وَلكِنِ الآنَ ، تَذَكَّرَ كُلُّ فَرْدٍ ما قُلْتُهُ عَنْها .

انْدَفَعَتِ القَوارِبُ الأرْبَعَةُ تَمْخُرُ عُبابَ الماءِ ، في مَشْهَدٍ رائِعٍ ، تَحْمِلُ فيهِ الأمْواجُ المُتَدَفِّقَةُ القَوارِبَ عالِياً ثُمَّ تَدَعُها تَنْزَلِقُ إلى الأوْدِيَةِ المائِيَّةِ . وَاخْتَلَطَتْ صَيْحاتُ الرِّجالِ ، الَّذينَ يُوَجِّهونَ القَوارِبَ مَعَ صِياحِ الصَّيّادينَ وَالمُجَدِّفينَ . وَاتَّجَهَتِ السَّفينَةُ بِيكْوُد خَلْفَ قَوارِبِها تَنْشُرُ أشْرِعَتَها في مَهَبِّ الرِّياحِ ، أشْبَهَ بِطائِرٍ كَبيرٍ يَسيرُ وَراءَ صِغارِهِ لِيَحْميَها مِنْ أيِّ خَطَرٍ طارِئٍ . كُلُّ ذَلِكَ في مَنْظَرٍ طَبيعيٍّ مُثيرٍ لِلْمَشاعِرِ .

كُنْتُ واحِداً مِنَ البَحّارَةِ الَّذينَ يَقومونَ بِالتَّجْديفِ في قارِبِ ستارْبَك ، الَّذي صاحَ فينا مُشَجِّعاً : « جَدِّفوا بِعَزْمٍ شَديدٍ ، يا رِجالُ ؛ فَهُناكَ عاصِفَةٌ آتِيَةٌ ، وَلَدَيْنا فُسْحَةٌ مِنَ الوَقْتِ لاصْطِيادِ أحَدِ الحيتانِ قَبْلَ هُبوبِها . اضْرِبوا بِالمَجاديفِ في الماءِ بِقُوَّةٍ وَسُرْعَةٍ . »

هَبَّ كويكْوِغ واقِفاً عَلى قَدَمَيْهِ ، قابِضاً عَلى حَرْبَتِهِ ، مُسْتَعِدًّا لِلْعَمَلِ في تَرَقُّبٍ وَحَذَرٍ ، مُدْرِكاً اقْتِرابَ اللَّحْظَةِ الحاسِمَةِ .

صاحَ ستارْبَك : « هُناكَ ! اقْذِفْ حَرْبَتَكَ ! »

وَانْدَفَعَتِ الحَرْبَةُ مِنْ يَدِ كويكْوِغ مُحْدِثَةً صَوْتاً صاخِباً مِنِ اخْتِراقِها لِلْهَواءِ .

حَدَثَ عَقِبَ ذَلِكَ اضْطِرابٌ فَظيعٌ ، وَاصْطَدَمَ القارِبُ بِشَيْءٍ ضَخْمٍ أَلْقى بِجَميعِ مَنْ فيهِ مِنَ الرِّجالِ في البَحْرِ ، وَأفْلَتَ الحوتُ هارِباً . وَامْتَلأَ القارِبُ بِالمِياهِ وَلكِنَّهُ كانَ سَليماً لَمْ يُصِبْهُ تَلَفٌ . وَاسْتَطَعْنا إنْقاذَ المَجاديفِ الَّتي كانَتْ تَطْفو فَوْقَ سَطْحِ البَحْرِ ، وَتَعَلَّقْنا جَميعاً بِالقارِبِ عائِدينَ إلَيْهِ .

خَيَّمَ الظَّلامُ عَلَيْنا في ذَلِكَ الحينِ ، وَارْتَعَشَتْ أجْسادُنا مِنْ شِدَّةِ البَرْدِ ، وَغَمَرَتِ المِياهُ المَوْجودَةُ داخِلَ القارِبِ أقْدامَنا وَسيقانَنا وَأرْجُلَنا عَنْ آخِرِها . وَتَمَلَّكَتْنا الحيرَةُ فَلَمْ نَعُدْ نَدْري أيَّ جِهَةٍ نَتَوَجَّهُ إلَيْها وَسْطَ هَذا الظَّلامِ الدّامِسِ .

وَبَعْدَ وَقْتٍ يَسيرٍ ، فوجِئْنا بِالسَّفينَةِ بيكْوُد تَخْرُجُ عَلَيْنا مِنْ هَذا الظَّلامِ ، مُنْدَفِعَةً رَأْساً نَحْوَنا انْدِفاعاً شَديداً ، أدْرَكْنا مِنْهُ – في هَلَعٍ وَرُعْبٍ – أنَّ مَنْ فَوْقَها مِنَ البَحّارَةِ لا يَرَوْنَ قارِبَنا عَلى الإطْلاقِ . وَفي هَذا الوَقْتِ العَصيبِ ، لَمْ يَكُنْ لَدَيْنا اخْتِيارٌ إلا أنْ نُلْقيَ بِأنْفُسِنا جَميعاً في البَحْرِ ؛ أمَلاً في إنْقاذِ أرْواحِنا . وَعِنْدَما مَرَّتِ السَّفينَةُ

أمامَنا شاهَدْنا قارِبَنا الخاليَ هُنَيْهَةً ، ثُمَّ جرَفَتْهُ السَّفينةُ ولَمْ نَرَهُ قطُّ بَعْدَ ذَلِكَ .

ظَلَلْنا نَسْبَحُ على مَقْرُبَةٍ مِنَ السَّفينةِ مُنادينَ على مَنْ فيها مِنَ البَحَّارَةِ ، حتَّى وَصَلَتْ إلَيْهِمْ أصْواتُ اسْتِغاثَتِنا . وأخيراً تم إنْقاذُنا ، وَعُدْنا جميعًا سالِمينَ إلَيْها مَرَّةً أخرى . واتَّضَحَ أنَّ السَّفينةَ كانَتْ تَبْحَثُ عنَّا ، وكادَتْ تَفْقِدُ الأمَلَ تقْريبًا في العُثورِ عَلَيْنا في هَذا اللَّيْلِ البَهيمِ .

الفصل العاشر

ستاب يَصْطادُ حوتًا

مَكَثْنا في البَحْرِ أسابيعَ عَديدَةً حتَّى اقْتَرَبْنا مِنْ رَأسِ الرَّجاءِ الصَّالحِ في أقْصى جَنوبِ أفْريقيا . وَالمَعْروفُ عَنْ هَذِهِ المِنْطَقَةِ مِنَ المُحيطِ أنَّها مكانٌ مُلائِمٌ لِصَيْدِ الحيتانِ . وَلِذَلِكَ كَثَّفْنا عَمَليَّاتِ الاسْتِطْلاعِ وَالمُراقَبَةِ .

وَذاتَ يَوْمٍ صاحَ البَحَّارُ القابِعُ عِنْدَ قِمَّةِ الصَّاري . وَلَكِنَّ صَيْحَتَهُ هَذِهِ المَرَّةَ لَمْ تَكُنْ صَيْحَةً تَنُمُّ عَنِ اكْتِشافِ الحيتانِ ، بَلْ كانَتْ نِداءً بَحْرِيًّا يُسْتَخْدَمُ عِنْدَ تَلاقي السُّفُنِ في البِحارِ لِلتَّحيَّةِ وَالسَّلامِ .

وَعلى أثَرِ ذَلِكَ عَلِمْنا أنَّهُ رَأى أشْرِعَةَ سَفينَةٍ أخرى ؛ فَأخَذْنا نَتَطَلَّعُ إلَيْها . وَبَيْنَما هِيَ تَقْتَرِبُ مِنَّا رُوَيْدًا رُوَيْدًا اكْتَشَفْنا أنَّها أيْضًا سَفينَةٌ لِصَيْدِ الحيتانِ . ثُمَّ شاهَدْنا اسْمَها (طائِرُ البَحْرِ) . وَكانَ مَنْظَرُها غَريبًا لِلْغايَةِ .

قالَ كويكوغ : « هَذِهِ السفينةُ مَضى عَلَيْها في البَحْرِ مُدَّةٌ طَويلةٌ لِلغايَةِ . »

سَأَلْتُهُ : « كَيْفَ عَرفتَ ذَلِكَ ؟ »

أجابَ : « انْظُرْ إلى أَمْلاحِ البَحْرِ البَيْضاءِ المُتراكِمَةِ على جَوانِبِها ، فَضْلاً عَنْ أنَّها فَقَدتْ مُعْظَمَ طِلائِها . »

قُلْتُ : « وَصاريها وَحِبالُها كَذَلِكَ كأنَّها أشْجارٌ تكْسوها الثُّلوجُ . »

وعِنْدَئِذٍ وَقفَ الرُّبّانُ آخاب على سَطْحِ السَّفينةِ مُرَدِّدًا النِّداءَ البَحْرِيَّ المُتَعارَفَ عَلَيْهِ لِلتَّحِيَّةِ ، ومُتَسائِلاً : « هَلْ صادَفْتُمُ الحوتَ الأَبْيَضَ الَّذي يُسَمُّونَهُ مُوبي دِك ؟ »

حينَئِذٍ مَرَّتِ السَّفينَتانِ تِجاهَ بَعْضِهِما ، وَأَجابَ صَوْتٌ مِنَ السَّفينةِ الأُخْرَى – طائِرُ البَحْرِ – صائِحًا وَلكِنَّ كَلِماتِهِ وَصَلَتْ إِلَيْنا خافِتَةً ضَعيفَةً لِدَرَجَةِ أَنَّنا لَمْ نَتَبَيَّنْ لَها مَعْنًى .

صاحَ آخاب فينا : « إِنَّهُمْ في طَريقِ العَوْدَةِ إلى وَطَنِهِمْ : عَلى النَّقيضِ مِنّا تَمامًا . » وَأَتْبَعَ ذَلِكَ بِصَيْحَةٍ مِنْهُ إلى البَحّارِ الواقِفِ عَلى عَجَلَةِ القِيادَةِ بِسَفينَتِنا ، قائِلاً : « اسْتَمِرَّ في الإِبْحارِ ! اسْتَمِرَّ في الإِبْحارِ حَتّى وَلَوْ حَوْلَ العالَمِ بِأَسْرِهِ ! »

طَلَعَ عَلَيْنا اليَوْمُ التالي ، وَكانَ يَوْمًا هادِئًا شَديدَ الحَرارَةِ ، جَعَلَ مِنَ العَسيرِ عَلى البَحّارَةِ مُقاوَمَةُ الاسْتِسْلامِ لِلنُّعاسِ . وَفي هَذا اليَوْمِ حَلَّ دَوْري لِلْقِيامِ بِنُوبَتْجِيَّةِ الاسْتِطْلاعِ في أَعْلى الصّاري ، فاضْطُرِرْتُ إلى أَنْ أُغْمِضَ عَيْنَيَّ تَفادِيًا لِمُواجَهَةِ أَشِعَّةِ الشَّمْسِ وَبَريقِها ، وَظَلِلْتُ مُعَلَّقًا أَتَأَرْجَحُ في هَوادَةٍ ، كُلَّما اهْتَزَّ صاري السَّفينَةِ مَعَ الرِّياحِ . وَفَجْأَةً فَتَحْتُ عَيْنَيَّ لأَرى – عَلى مَقْرُبَةٍ مِنَ السَّفينَةِ تَمامًا – حوتًا ضَخْمًا ، فَوْقَ رَأْسِهِ كُتْلَةٌ بَيْضاءُ مِنَ الدُّهونِ ، وَيَبْرُزُ مِنْ فَكِّهِ السُّفْلِيِّ أَسْنانٌ وَأَنْيابٌ مُفْتَرِسَةٌ . وَكانَ يَسْبَحُ مُتَقَلِّبًا في الماءِ ؛ فَبَدا ظَهْرُهُ العَريضُ مُضيئًا لامِعًا في أَشِعَّةِ الشَّمْسِ كَلَوْحٍ مُسَطَّحٍ مِنَ الزُّجاجِ .

أَطْلَقْتُ صَيْحاتٍ عالِيَةً بِأَقْصى ما اسْتَطَعْتُ مِنْ صَوْتٍ ، فَخورًا بِأَنْ أَكونَ أَوَّلَ رَجُلٍ شاهَدَ الحوتَ : « هُناكَ ! ظَهَرَ الحوتُ الأَبْيَضُ ! ظَهَرَ بِأَنْفِهِ فَوْقَ سَطْحِ الماءِ ! »

وَسَرْعانَ ما هَبَّ النّائِمونَ مِنْ سُباتِهِمْ ، وَدَبَّ النَّشاطُ في السَّفينَةِ بِأَسْرِها ، وَدَوّى في أَنْحائِها عِشْرونَ صَوْتًا يُرَدِّدونَ صِياحي . وَصاحَ الرُّبّانُ آخاب : « انْطَلِقوا بِقَوارِبِ الصَّيْدِ في البَحْرِ . »

وَلَكِنَّ الصِّياحَ المُفاجِئَ لِلْبَحّارَةِ كُلِّهِمْ ، في صَوْتٍ واحِدٍ ، كانَ لا بُدَّ مِنْ أَنْ يُخيفَ هَذا الحوتَ . وَقَبْلَ أَنْ يَتِمَّ إِنْزالُ القَوارِبِ إلى

البَحْرِ اسْتدارَ مُبْتعداً عَنِ السَّفينَةِ ، ثُمَّ رفَعَ ذَيْلَهُ – الَّذي يُقَدَّرُ طولُهُ بِعشَرَةِ أمْتارٍ – عالِياً في الهَواءِ ، وَغَطَسَ في البَحْرِ مُخْتَفِياً عَنِ الأنْظارِ ، كَما لَوْ كانَ سَفينَةً ضَخْمَةً انْشَقَّ لَها البَحْرُ وابْتَلعَتْها المِياهُ .

انْتَظَرْنا في لَهْفَةٍ وَقَلَقٍ ، حَتَّى ظَهَرَ الحوتُ أخيراً مَرَّةً أخرى بِالقُرْبِ مِنْ قارِبِ ستاب ، سابِحاً بِسُرْعَةٍ فائِقَةٍ ، رافِعاً رَأْسَهُ فَوْقَ سَطْحِ الماءِ ؛ فَأَخَذَ بَحّارَةُ القارِبِ يُجَدِّفونَ في جُنونٍ مُتَعَقِّبينَ إيّاهُ ، وَعِنْدَما اقْتَرَبوا مِنْهُ صاحَ ستاب : « تاشْتيغو ! اسْتَعِدَّ واضْرِبْ بِحَرْبَتِكَ ! »

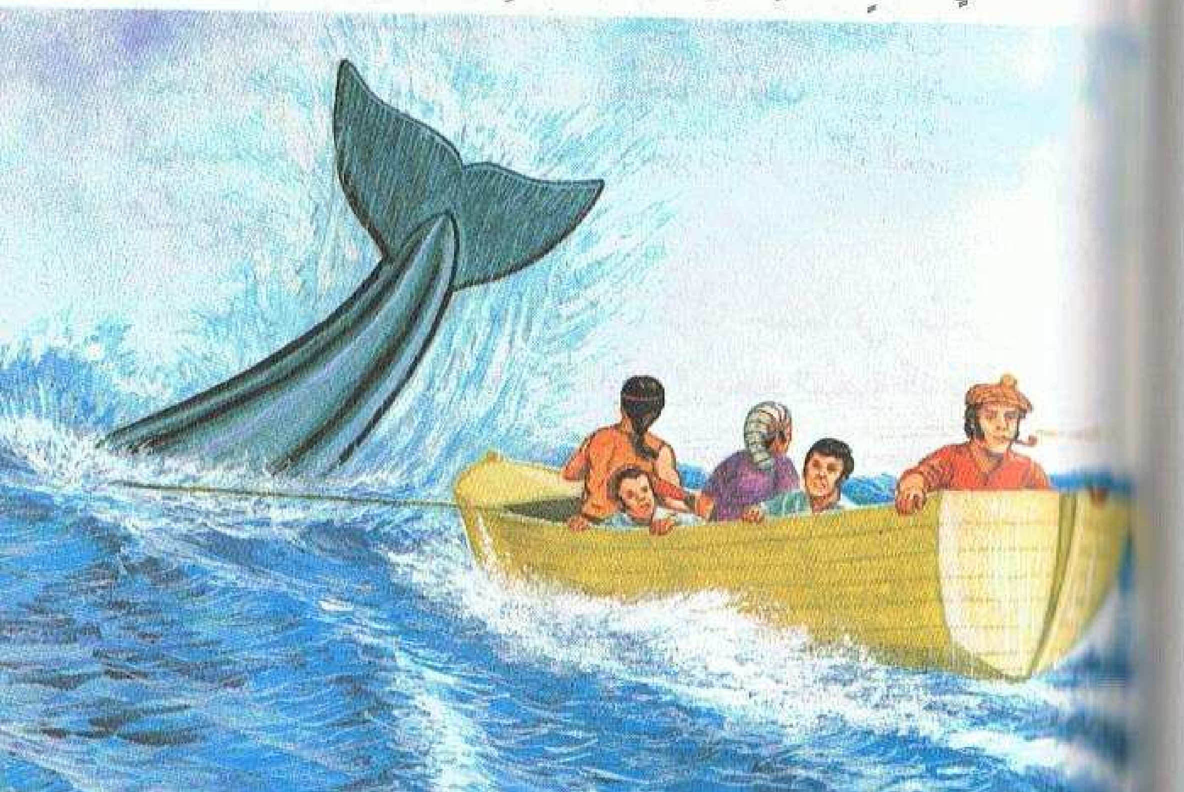
وَانْطَلَقَتِ الحَرْبَةُ – في قُوَّةٍ وَشِدَّةٍ – حَيْثُ أصابَتِ الحوتَ وَاسْتَقَرَّتْ في مُنْتَصَفِ ظَهْرِهِ ، حَتَّى أصْبَحَ الحَبْلُ الواصِلُ بَيْنَها وَبَيْنَ القارِبِ مَشْدوداً عَنْ آخِرِهِ . وَاسْتَشاطَ الحوتُ المُصابُ غَضَباً ، وَأَخَذَ يَسْبَحُ في سُرْعَةٍ مُتزايِدَةٍ ، ساحِباً القارِبَ خَلْفَهُ في انْدِفاعٍ شَديدٍ ، جَعَلَ مَنْ فيهِ مِنَ البَحّارَةِ يَتَشَبَّثونَ بِكُلِّ ما لَدَيْهِمْ مِنْ قُوَّةٍ وَعَزْمٍ بِجَوانِبِ القارِبِ ، الَّذي مَضى طائِراً فَوْقَ سَطْحِ الماءِ ، حَتَّى أخَذَ الحوتُ أخيراً يُهَدِّئُ مِنْ سُرْعَتِهِ قَليلاً قَليلاً .

صاحَ ستاب : « شُدّوا الحَبْلَ بِقُوَّةٍ ! فَاشْتَرَكَ الرِّجالُ جَميعاً في جَذْبِ حَبْلِ الحَرْبَةِ ، حَتَّى تَلامَسَ القارِبُ وَجَسَدُ الحوتِ . وَاسْتَنَدَ

ستاب عَلى حافَةِ القارِبِ ، وَعَلى أبْعَدِ مَدًى مُمْكِنٍ أغْمَدَ خَنْجَرَهُ الطَّويلَ في أحَدِ جَوانِبِ الحوتِ ، الَّذي أخَذَ يَتَقَلَّبُ بِشَراسَةٍ مِنْ ناحِيَةٍ إلى أخْرى ، ضارِباً الماءَ بِذَيْلِهِ وَالهَواءَ بِرَأْسِهِ ؛ وَاسْتَمَرَّ يُكافِحُ مُدَّةً طَويلَةً وَالدِّماءُ تَنْزِفُ مِنْهُ بِغَزارَةٍ وَتَخْتَلِطُ بِمِياهِ البَحْرِ ، حَتَّى خارَتْ قُواهُ ، وَرَقَدَ هٰذا المَخْلوقُ الضَّخْمُ أخيراً ساكِناً لا حَراكَ بِهِ .

قالَ تاشْتيغو لِلسَّيِّدِ ستاب بَعْدَ أنِ انْتَهَتِ المَعْرَكَةُ : « ماتَ الحوتُ . »

رَدَّ ستاب : « نَعَمْ . » وَنَزَعَ غَلْيونَهُ مِنْ فَمِهِ وَ وَقَفَ مُتَأَمِّلاً – في تَفْكيرٍ عَميقٍ – ناظِراً إلى الحوتِ الهائِلِ الَّذي نَجَحَ في اصْطِيادِهِ .



كانَ مَوقعُ قاربِ ستاب – في هذا الوَقْتِ – على مَبْعَدَةٍ مِنَ السَّفينَةِ ، فاشْتَركَتْ قواربُ الصَّيْدِ الثَّلاثَةُ في سَحْبِ جُثَّةِ الحوتِ الضَّخْمِ ، وَبَذَلَ بَحّارَتُها جُهْداً مُضْنِياً في دَفْعِ القَوارِبِ بِالتَّجْديفِ ، لِعَدَمِ هُبوبِ رِياحٍ مُواتيَةٍ ، وَمَعَ ذَلِكَ لَمْ يَتَمكَّنوا إلّا بِبُطْءٍ شَديدٍ مِنَ الوُصولِ إلى السَّفينَةِ بيكْوُد .

وَفي الحالِ أَسْقَطَ البَحّارَةُ السَّلاسِلَ فَوْقَ جانِبِ السَّفينَةِ حَيْثُ قامَ بَعْضُهُمْ بِاسْتِخْدامِها في رَبْطِ الحوتِ ، وَالاحْتِفاظِ بِهِ مُلاصِقاً لَها .

وَكانَ لا بُدَّ مِنْ قِيامِ حارِسَيْنِ طَوالَ اللَّيْلِ بِمُطارَدَةِ أَسْماكِ القِرْشِ ، الَّتي تَجمَّعَتْ حَوْلَ الحوتِ الميِّتِ . وَاخْتيرَ كويكوغ وَأَحَدُ البَحّارَةِ الآخَرينَ لِهَذِهِ المُهِمَّةِ ، فَأَخَذا يَدْفَعانِ هَذِهِ الأَسْماكَ المُهاجِمَةَ بِحِرابٍ قاتِلَةٍ . وَلَوْلا ذَلِكَ لأَجْهَزَتْ عَلى جُثَّةِ الحوتِ مَعَ الصَّباحِ .

وَبِمُجَرَّدِ بُزوغِ فَجْرِ اليَوْمِ التّالي ، شَرَعْنا جَميعاً في اسْتِخْراجِ الزَّيْتِ مِنَ الحوتِ . أَوَّلاً أَحْضَرَ البَحّارَةُ فَوْقَ سَطْحِ السَّفينَةِ آلَةً يَتَدَلَّى مِنْها حَبْلٌ في نِهايَتِهِ خُطّافٌ كَبيرٌ . ثُمَّ وَقَفَ ستاربَك وَستاب عَلى لَوْحٍ خَشَبِيٍّ طَويلٍ فَوْقَ الحوتِ وَأَحْدَثوا فُتْحَةً في جَسَدِهِ لِتَرْكيبِ الخُطّافِ فيها . وَبَدَأَ البَحّارَةُ في تَشْغيلِ الآلَةِ وَهُمْ يَتَرَنَّمونَ بِالأَغاني

الشَّعْبِيَّةِ ؛ لِحَفْزِ هِمَمِهِمْ أَثْناءَ العَمَلِ . وَأَخَذَ الحَبْلُ يَلْتَفُّ حَوْلَ الآلَةِ وَيَقْصُرُ رُوَيْداً رُوَيْداً وَيَزْدادُ إِحْكاماً ، حَتَّى أَصْبَحَ مَشْدوداً عَنْ آخِرِهِ ، وَعِنْدَئِذٍ بَدَأَ الخُطّافُ يَجْذِبُ كُتْلَةً مِنْ دُهونِ الحوتِ خارِجَ جَسَدِهِ ، حَتّى خَرَجَتْ كُلُّها في شَريحَةٍ طَويلَةٍ واحِدَةٍ أَشْبَهَ بِشَريحَةٍ مَنْزوعَةٍ مِنْ قِشْرَةِ بُرْتُقالَةٍ . وَأَخَذَ كُلٌّ مِنْ ستاربَك وَستاب يُقَطِّعُ شَرائِحَ الدُّهونِ كُلَّما تَقَلَّبَ جَسَدُ الحوتِ في الماءِ . وَاسْتَمَرَّ العَمَلُ عَلى هَذِهِ الوَتيرَةِ حَتّى تَمَّ انْتِزاعُ كافَّةِ الشَّرائِحِ ، الَّتي أُنْزِلَتْ بَعْدَ ذَلِكَ إِلى حُجْرَةِ الدُّهونِ ، الَّتي تَقَعُ بِداخِلِ السَّفينَةِ ، حَيْثُ تَمَّ غَلْيُها وَتَجْميعُ زَيْتِ الحوتِ الثَّمينِ ، المَعْروفِ بِقيمَتِهِ العالِيَةِ .

الفصل الحادي عشر

كويكوغ يُنقذُ حياةَ تاشتيغو

أثمنُ شيءٍ في الحوتِ كُلِّهِ ما يَحتويهِ جِسمُهُ مِنْ دُهونٍ ، وما يَتجمَّعُ في رأسِهِ مِنها . لِذلكَ عِندما تمَّ نزعُ شرائحِ الدُّهونِ مِنْ جِسمِهِ ، فَصلَ ستاربَك وستاب رأسَ الحوتِ أيضاً .

بَعْدَ ذلكَ صاحَ ستاب : « فُكُّوا السَّلاسِلَ ، وأطلِقوا جُثَّةَ الحوتِ . »

وَقفزَ الضابِطانِ إلى السَّفينةِ عائدَيْنِ إليْها ، على حينَ أرْخى البَحَّارةُ السَّلاسِلَ ، فتلقَّتْ مياهُ البحرِ جُثَّةَ الحوتِ الضَّخمةَ ، وحملَتْهُ بَعيداً عَنِ السَّفينةِ رُوَيْداً رُوَيْداً . وكانَ يَبْدو في حَجْمِهِ الهائلِ عِندما بَدأتْ أسْماكُ القِرشِ وكِلابُ البَحرِ تَهْجُمُ عَلَيهِ مَرَّةً أخرى . ولَمْ يَمضِ وقْتٌ طَويلٌ حَتّى تَجمَّعَ على الحوتِ مَزيدٌ مِنْ أسْماكِ القِرشِ تَنهشُ فيهِ ، وأسرابٌ مِنَ الطُّيورِ تَحومُ حوْلَهُ . وتَحتَ السَّماءِ الزَّرقاءِ

الصّافِيَةِ ، وَعلى سَطحِ البَحْرِ الهادِئِ تَحرَّكَتْ هَذِهِ الكُتْلَةُ الضَّخمَةُ الّتي فَقَدَتِ الحَياةَ ، مَعَ التَّيّارِ حَتّى اختَفَتْ عَنِ الأنْظارِ على المَدى البَعيدِ .

رَفَعَ البَحّارَةُ رَأسَ الحوتِ – وَهِيَ مُعلَّقَةٌ في الخُطّافِ – إلى مُنْتَصَفِ المَسافَةِ بَيْنَ سَطْحِ البَحْرِ والسَّفينَةِ . وَبَدأتْ عَمَلِيَّةُ اسْتِخْراجِ أغْلى الزُّيوتِ وأعْظَمِها قيمَةً ، مِنْ جُزْئِها العُلْوِيِّ . قَدْ يَحْتَوي رَأسُ هَذا النَّوْعِ مِنَ الحيتانِ الضَّخْمَةِ على خَمْسِمائَةِ جالونٍ مِنَ الدُّهونِ ، وكانَ هَذا الحوتُ ، الَّذي اصْطادَهُ ستاب ، واحِداً مِنْها ، إذْ يَبْلُغُ طولُهُ أكْثَرَ مِنْ خَمْسَةٍ وَعِشْرينَ مِتْراً ، وَطولُ الرَّأسِ وَحْدَهُ سَبْعَةُ أمْتارٍ .

تَسَلَّقَ تاشْتيغو ، بِما يَتَمَيَّزُ بِهِ مِنْ مَهارَةٍ وَخِفَّةِ حَرَكَةٍ تُضارِعُ القِطَطَ ، وَتَقَدَّمَ على رَأسِ الحوتِ مُمْسِكاً بِدَلْوٍ وَخَنْجَرٍ حادٍّ . في أوَّلِ الأمْرِ ، ثَقَبَ فُتْحَةً في الرَّأسِ بَعْدَ قَطْعِ جِلْدِها السَّميكِ ، ثُمَّ أنْزَلَ فيها الدَّلْوَ مُسْتَخْدِماً عَصاً طَويلَةً وَحَبْلاً ، وَبَعْدَ هُنَيْهَةٍ جَذَبَ البَحّارَةُ المُرابِطونَ على سَطْحِ السَّفينَةِ الحَبْلَ ، فَخَرَجَ الدَّلْوُ مِنْ فُتْحَةِ الرَّأسِ مَمْلوءاً بِالدُّهونِ ، حَيْثُ تَمَّ تَخْزينُها في مَكانٍ خاصٍّ . وَتَكَرَّرَتْ هَذِهِ العَمَلِيَّةُ بِإنْزالِ الدَّلْوِ داخِلَ الفُتْحَةِ وَجَذْبِهِ مِنْها ، حَتّى تَمَّ تَفْريغُ الرَّأسِ مِنْ كُلِّ ما بِهِ مِنْ دُهونٍ .

وَفَجْأةً وَقَعَتْ حادِثَةٌ مُخيفَةٌ مَلأتْ قُلوبَنا رُعْباً وَذُعْراً ؛ إذِ انْزَلَقَ

تاشْتيغو المِسْكينُ ، بِمُجَرَّدِ جَذْبِ الدَّلْوِ ، وَسَقَطَ داخِلَ فُتْحَةِ الرَّأْسِ وَاخْتَفى فيها .

صاحَ داغو مُنْفَعِلاً : « ادْفَعوا الدَّلْوَ تِجاهَ الفُتْحَةِ ! »

وَسُرْعانَ ما وَقَعَتْ حادِثَةٌ أُخْرى في نَفْسِ الوَقْتِ ، زادَتِ المَوْقِفَ سُوءاً عَلى سوءٍ ؛ إِذْ أَفْلَتَ أَحَدُ الخُطّافَيْنِ الكَبيرَيْنِ ، اللَّذَيْنِ يَحْمِلانِ رَأْسَ الحوتِ ، فَهَوى جانِبٌ مِنَ الرَّأْسِ تِجاهَ البَحْرِ ، وَبَدا مِنَ النّادِرِ أَنْ يَكونَ لِلْخُطّافِ الآخَرِ طاقَةٌ عَلى تَحَمُّلِ ثِقَلِ الرَّأْسِ كُلِّهِ .

وَعِنْدَما انْدَفَعَ داغو مُتَسَلِّقاً رَأْسَ الحوتِ ؛ مُحاوِلاً أَنْ يَفْعَلَ شَيْئاً مِنْ أَجْلِ إِنْقاذِ تاشْتيغو ، صاحَ فيهِ البَحّارَةُ مُحَذِّرينَ وَمُنْذِرينَ : « اهْبِطْ بِسُرْعَةٍ ! اهْبِطْ ، وَإِلّا واجَهْتَ نَفْسَ المَصيرِ ! »

في هَذِهِ اللَّحْظَةِ كانَ داغو قابِضاً عَلى الحَبْلِ بِيَدٍ واحِدَةٍ ، وَإِذا ما أَفْلَتَ الخُطّافُ الثّاني مِنْ رَأْسِ الحوتِ فَلَنْ يَكونَ في وُسْعِهِ إِلّا أَنْ يَزْدادَ تَشَبُّثاً بِالحَبْلِ ، وَيَعودَ بِهِ إِلى السَّفينَةِ . وَلَكِنَّ داغو لَمْ يُلْقِ بالاً لِصِياحِ البَحّارَةِ ، وَدَفَعَ بِالدَّلْوِ داخِلَ فُتْحَةِ الرَّأْسِ ؛ أَمَلاً في أَنْ يَتَلَقَّفَهُ تاشْتيغو وَيَتَعَلَّقَ بِهِ حَتّى يُمْكِنَ إِنْقاذُهُ .

صاحَ فيهِ البَحّارَةُ مَرَّةً أُخْرى في هَلَعٍ وَجَزَعٍ : « احْتَرِسْ ! احْتَرِسْ ! » وَإِذا بِالخُطّافِ الثّاني يُفْلِتُ مِنَ الرَّأْسِ وَقَدْ ناءَ بِحَمْلِهِ ،

فَهَوى الرَّأْسُ الضَّخْمُ في البَحْرِ ، وَتَأَرْجَحَتِ السَّفينَةُ عَلى جانِبَيْها بَعْدَ أَنْ تَخَلَّصَتْ مِنْ هَذا الوَزْنِ الثَّقيلِ ، مُبْتَعِدَةً عَنْ مَوْقِعِها .

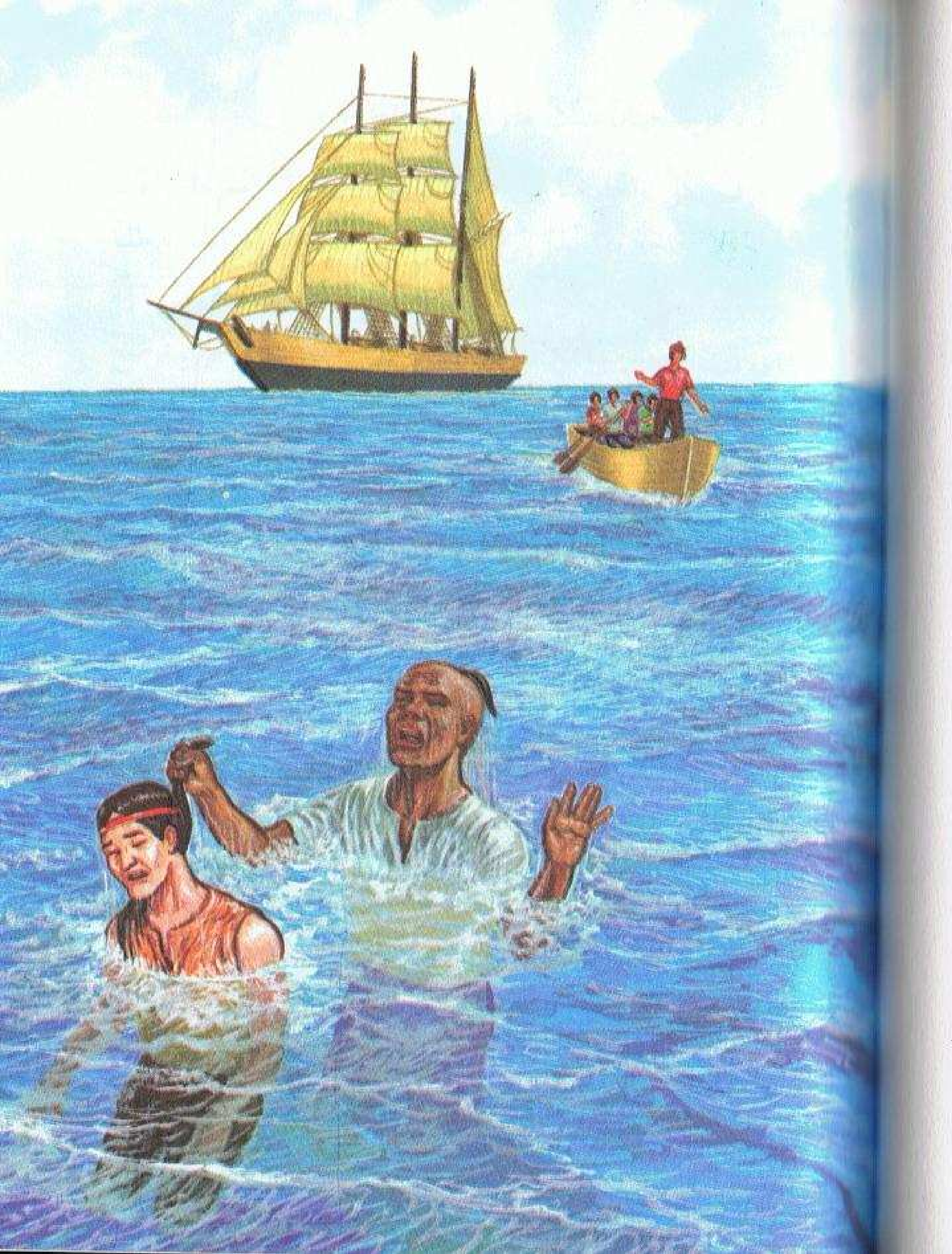
تَشَبَّثَ داغو بِالحَبْلِ وَأَخَذَ يَتَأَرْجَحُ مُتَدَلِّياً مِنْهُ ، تارَةً فَوْقَ رُءوسِ البَحّارَةِ ، وَتارَةً أُخْرى فَوْقَ البَحْرِ ، عَلى حينَ غاصَ الرَّأْسُ وَتاشْتيغو بِداخِلِها في مِياهِ البَحْرِ إِلى القاعِ .

وَعَلى حينِ غِرَّةٍ فاجَأَ البَحّارَةَ شَبَحُ رَجُلٍ كانَ قابِضاً عَلى سَيْفٍ في يَدِهِ . إِنَّهُ كويكوغ – صَديقي الشُّجاعُ – الَّذي وَثَبَ عَلى حافَةِ السَّفينَةِ ثُمَّ قَفَزَ في الماءِ .

وَهُنا انْدَفَعَ كُلُّ واحِدٍ مِنّا إِلى جانِبِ السَّفينَةِ مِنْ تِلْقاءِ نَفْسِهِ لِيُشاهِدَ ما يَحْدُثُ .

مَرَّتْ لَحَظاتٌ ثِقالٌ وَلا أَثَرَ لِكويكوغ وَلا لِرَأْسِ الحوتِ . وَدَفَعَ القَلَقُ بَعْضَ البَحّارَةِ فَقَفَزوا في أَحَدِ القَوارِبِ ، وَانْطَلَقوا بِهِ في البَحْرِ .

وَبَيْنَما كانَ داغو لا يَزالُ مُتَعَلِّقاً بِالحَبْلِ رائِحاً غادِياً بِهِ ، صاحَ بَغْتَةً : « ها هُما قَدْ ظَهَرا هُناكَ ! هُما الاثْنانِ ! » فَانْطَلَقَتْ صَيْحَةُ فَرَحٍ مِنْ أَعْماقِ الرِّجالِ ، وَصَلَتْ إِلى عَنانِ السَّماءِ . وَأَخَذوا يُحَمْلِقونَ مَشْدوهينَ غَيْرَ مُصَدِّقينَ .



ظَهَرَ كويكْوِغ يَشُقُّ الماءَ في قُوَّةٍ وَعَزْمٍ ، جارا تاشْتيغو مِنْ شَعْرِهِ الطَّويلِ ، حَتَّى إذا وَصَلا إلى القارِبِ رَفَعَهُما البَحَّارَةُ وَهُما في حالَةٍ يُرْثى لَها مِنَ الضَّعْفِ وَالوَهَنِ ، لِدَرَجَةِ أَنَّ تاشْتيغو لَمْ يَسْتَرِدَّ أَنْفاسَهُ إلّا بَعْدَ وَقْتٍ طَويلٍ ، أَمَّا كويكْوِغ فَقَدْ بَدا عَلَيْهِ الإعْياءُ وَالإجْهادُ الشَّديدُ .

تَجَمَّعَ البَحَّارَةُ حَوْلَ كويكْوِغ فَوْرَ وُصولِهِ إلى السَّفينَةِ . وَسَأَلْتُهُ في لَهْفَةٍ : « كَيْفَ أَنْقَذْتَهُ ؟» وَقَدْ كُنَّا جَميعًا نَتَحَرَّقُ شَوْقًا لِسَماعِ إجابَةٍ لِهَذا السُّؤالِ .

أَجابَ كويكْوِغ : « قَطَعْتُ أَحَدَ جانِبَيْ رَأْسِ الحوتِ بِسَيْفي البَتَّارِ ، وَثَقَبْتُ بِالقُرْبِ مِنْ قاعِها فُتْحَةً غَمَسْتُ ذِراعي بِداخِلِها ، وَلِحُسْنِ حَظّي أَحْسَسْتُ بِشَعْرِ تاشْتيغو ؛ فَجَذَبْتُهُ إلى الخارِجِ بِكُلِّ ما اسْتَطَعْتُ مِنْ قُوَّةٍ .»

هَذِهِ المُغامَرَةُ العَجيبَةُ قَدْ تَبْدو مُسْتَحيلَةً ، لا يُصَدِّقُها عَقْلُ بَعْضِ الرِّجالِ ، الَّذينَ لَمْ يُتَحْ لَهُمْ فُرْصَةُ الإبْحارِ في سَفينَةٍ لِصَيْدِ الحيتانِ . وَالأَمْرُ لا يَعْدو أَنْ يَكونَ قِصَّةَ رَجُلٍ شُجاعٍ جَسورٍ ، أَقْدَمَ – في تَضْحِيَةٍ وَإخْلاصٍ – عَلى إنْقاذِ حَياةِ تاشْتيغو ، وَساعَدَهُ الحَظُّ عَلى تَحْقيقِ هَذِهِ المُعْجِزَةِ . وَلَكِنْ أَحْيانًا ، حَتَّى تاشْتيغو نَفْسُهُ ، مِنَ العَسيرِ عَلَيْهِ أَنْ يُصَدِّقَ هَذا الحَظَّ السَّعيدَ الَّذي واتاهُ .

الفصل الثاني عشر

مَعْلوماتٌ عَنِ الحيتان

قَبْلَ هَذِهِ الرِّحْلَةِ لَمْ تَسْمَحْ لِيَ الظُّروفُ قَطُّ بِمُشاهَدَةِ الحوتِ عَنْ قُرْبٍ . لَكِنَّ هَذِهِ المُغامَراتِ الأخيرَةَ أثارَتْ في نَفْسي غَريزَةَ الفُضولِ وَحُبَّ الاسْتِقْصاءِ ؛ حَتَّى أَتَعَرَّفَ عَلى هَذِهِ المَخْلوقاتِ الضَّخْمَةِ ، الَّتي يَنْحَصِرُ صَميمُ عَمَلِنا في اصْطِيادِها .

بَعْدَ حوتِ ستاب لَمْ نَرَ حوتاً آخَرَ طَوالَ أُسْبوعَيْنِ أَوْ ثَلاثَةٍ ، تَوَفَّرَ لَدَيَّ خِلالَها وَقْتٌ كافٍ لِلتَّفْكيرِ فيها .

أَوَّلُ سِمَةٍ مِنْ سِماتِ الحوتِ هِيَ ما يَنْفُثُهُ عادَةً مِنْ رَذاذٍ ، وَأَعْتَقِدُ أَنَّ كافَّةَ الحيتانِ تَتَميَّزُ بِهَذِهِ الصِّفَةِ مُنْذُ بَدْءِ الخَليقَةِ ، وَأَنَّ الصَّيّادينَ رُبَّما مُنْذُ مِئاتِ السِّنينَ يُراقِبونَ هَذا الرَّذاذَ المُتَدَفِّقَ مِنْها وَيَعُدّونَهُ دَليلاً واضِحاً عَلى ظُهورِ الحيتانِ .

وَلَكِنَّ ثَمَّةَ سُؤالاً واحِداً لا يَزالُ في حاجَةٍ إلى إجابَةٍ مُحَدَّدَةٍ

قاطِعَةٍ : هَلِ الحيتانُ تَنْفُثُ ماءً أَمْ هَواءً فَقَطْ ؟

يَعْرِفُ كُلُّ واحِدٍ مِنّا أَنَّ الأَسْماكَ تَقْضي طيلَةَ عُمْرِها تَحْتَ الماءِ ، وَلا حاجَةَ بِها أَبَداً إلى دَفْعِ رُءوسِها فَوْقَ سَطْحِ الماءِ ؛ طَلَباً لاسْتِنْشاقِ الهَواءِ . وَلَكِنَّ الحوتَ لا يُعْتَبَرُ مِنْ فَصيلَةِ الأَسْماكِ ، إِنَّهُ يَنْتَمي إلى الحَيَواناتِ الَّتي تَعيشُ في البِحارِ . فَإِنَّ أُنْثى الحوتِ تُرْضِعُ صِغارَها اللَّبَنَ كَما تَفْعَلُ بَقِيَّةُ الحَيَواناتِ . وَتَسْتَطيعُ الحيتانُ المَعيشَةَ فَقَطْ عَنْ طَريقِ تَنَفُّسِ الهَواءِ فَوْقَ سَطْحِ الماءِ .

وَذاتَ يَوْمٍ بَيْنَما كُنّا نَجْلِسُ – أَنا وَكويكْوِغ – عَلى سَطْحِ السَّفينَةِ سَأَلْتُهُ : « كَيْفَ يَتَنَفَّسُ الحوتُ مَعَ أَنَّ فَمَهُ غالِباً ما يَكونُ تَحْتَ الماءِ عَلى الأَقَلِّ بِثَلاثَةِ أَمْتارٍ ؟»

أَجابَ كويكْوِغ : « إِنَّهُ لا يَتَنَفَّسُ عَنْ طَريقِ فَمِهِ ، بَلْ يَتَنَفَّسُ عَنْ طَريقِ فُتْحَةٍ في قِمَّةِ رَأْسِهِ تُسَمَّى « فُوَّهَةَ التَّنَفُّسِ » . وَعِنْدَما يَتَنَفَّسُ فَإِنَّنا نَسْتَطيعُ أَنْ نَرى هَذِهِ الفُوَّهَةَ وَما يَنْفُثُهُ مِنْها ، وَحينَئِذٍ نَصيحُ قائِلينَ : ‹‹ هُناكَ ظَهَرَ الحوتُ ! ظَهَرَ بِأَنْفِهِ فَوْقَ سَطْحِ الماءِ !›› »

« إِذاً ، كَمْ مَرَّةً يَحْتاجُ فيها الحوتُ إلى الصُّعودِ فَوْقَ سَطْحِ الماءِ طَلَباً لِلتَّنَفُّسِ ؟»

« إِنَّهُ يَسْتَنْشِقُ كَمِّيَّةً مِنَ الهَواءِ تَكْفيهِ مُدَّةَ ساعَةٍ مِنَ الزَّمَنِ .

وَيَسْتَطيعُ بِذَلِكَ أَنْ يَمْكُثَ تَحْتَ الماءِ طيلَةَ هَذِهِ المُدَّةِ ، ثُمَّ عَلَيْهِ أَنْ يَصْعَدَ بَعْدَ ذَلِكَ لِعَمَلِيَّةِ اسْتِنْشاقٍ أُخْرى . وَقَدْ تَعَوَّدَ أَنْ يَظْهَرَ عَلى سَطْحِ الماءِ في أَوْقاتٍ مُنْتَظِمَةٍ . وَلَكِنَّهُ إِذا شَعَرَ بِمُطارَدَةِ الصَّيّادينَ فَإِنَّهُ يَهْبِطُ إِلى أَعْماقِ البَحْرِ ، وَقَبْلَ ذَلِكَ قَدْ لا يَكونُ لَدَيْهِ إِلّا وَقْتٌ يَسيرٌ فَقَطْ لِأَخْذِ نَفَسٍ قَصيرٍ . وَغالِباً ما يَصْعَدُ مَرَّةً أُخْرى لِإِتْمامِ عَمَلِيَّةِ التَّنَفُّسِ ، بِمُجَرَّدِ ما يَقْدِرُ عَلى ذَلِكَ .»

بَعْدَ هَذِهِ المَعْلوماتِ الجَديدَةِ الَّتي عَرَفْتُها عَنِ الحيتانِ لِأَوَّلِ مَرَّةٍ ، سَأَلْتُهُ أَخيراً : « هَلْ يَنْفُثُ الحوتُ ماءً أَمْ هَواءً ؟»

أَجابَ كويكْوِغ : « لا أَحَدَ يَعْرِفُ بِالضَّبْطِ ، وَلَكِنَّني سَمِعْتُ شَيْئاً عَجيباً . فَإِذا كُنْتَ قَريباً جِدًّا مِنْهُ وَتَصادَفَ دُخولُ الرَّذاذِ المُتَدَفِّقِ مِنْهُ في عَيْنَيْكَ ؛ فَإِنَّهُ يُصيبُكَ بِفِقْدانِ البَصَرِ . وَلِذَلِكَ ، فَمِنَ الحِكْمَةِ عَدَمُ الاقْتِرابِ مِنْهُ وَالحِرْصُ عَلى الابْتِعادِ عَنْهُ بِمَسافَةٍ مُناسِبَةٍ .»

بَعْدَ بِضْعَةِ أَيّامٍ ، كُنّا نُبْحِرُ في ضَوْءِ الشَّمْسِ ، وَفَجْأَةً صاحَ مُراقِبُ الاسْتِطْلاعِ : « هُناكَ ظَهَرَ الحوتُ ! ظَهَرَ فَوْقَ سَطْحِ الماءِ !»

انْدَفَعَ كُلُّ واحِدٍ مِنّا إِلى مَكانِهِ في انْتِظارِ صُدورِ الأَوامِرِ ، وَعَلى أَتَمِّ اسْتِعْدادٍ لِتَنْفيذِها في حَماسٍ دافِقٍ . وَاشْرَأَبَّتْ أَعْناقُنا مُتَطَلِّعَةً إِلى

البَحْرِ ، حَيْثُ شاهَدْنا مَجْموعَةً مِنَ الحيتانِ تُشَكِّلُ نِصْفَ دائِرَةٍ ، يَنْفُثُ كُلُّ واحِدٍ مِنْها تَيّاراً نَفّاثاً ، يَصْعَدُ عالِياً في الهَواءِ بِانْدِفاعٍ شَديدٍ .

انْطَلَقَتْ سَفينَتُنا ، ناشِرَةً كامِلَ أَشْرِعَتِها ، تَتَعَقَّبُ هَذِهِ المَجْموعَةَ مِنَ الحيتانِ ، الَّتي تَفَرَّقَتْ في كُلِّ الاتِّجاهاتِ في انْزِعاجٍ وَاضْطِرابٍ .

هُنا كانَتْ صَيْحَةُ الرُّبّانِ : « انْطَلِقوا بِالقَوارِبِ وَراءَها !»

اتَّجَهَ كُلُّ قارِبٍ في إِثْرِ أَقْرَبِ الحيتانِ مِنْهُ ، خارِجَ نِطاقِ تَجَمُّعِها ، بَعْدَ أَنْ تَباعَدَتْ بَعْضُها عَنْ بَعْضٍ .

أَطْلَقَ كويكْوِغ حَرْبَتَهُ وَدَوّى صَفيرُها في الهَواءِ حَتّى أَصابَتْ أَحَدَ الحيتانِ ، وَلَكِنَّها لَمْ تَقْتُلْهُ ؛ فَهاجَ وَماجَ وَنَفَرَ سابِحاً في ثَوْرَةٍ عارِمَةٍ ، ساحِباً القارِبَ خَلْفَهُ ، حَتّى وَصَلَ بِنا في وَسْطِ مَجْموعَةٍ أُخْرى مِنَ الحيتانِ ، كَأَنَّهُ يَحْتَمي بِها مِنّا .

وَقَعْنا في مَأْزِقٍ خَطيرٍ ، وَتَعَرَّضْنا لِبَطْشِ هَذِهِ المَخْلوقاتِ الخائِفَةِ ، الَّتي تَحومُ حَوْلَنا في ذُعْرٍ وَفَزَعٍ . حاوَلْنا السَّيْرَ بِقارِبِنا بَيْنَها وَلَكِنَّ أَجْسامَها الضَّخْمَةَ كانَتْ تَضْغَطُ عَلَيْنا بِشِدَّةٍ ؛ مُعْتَرِضَةً طَريقَنا . وَفي ظِلِّ هَذا المَوْقِفِ المُضْطَرِبِ تَمَكَّنَ الحوتُ المُصابُ بِحَرْبَةِ

كويكوغ أنْ يُحرِّرَ نفْسَهُ ، ويَلوذَ بِالفِرارِ فَرِحًا بِالنَّجاةِ . وَمَكَثْنا وَسْطَ هَذا الحَشْدِ الهائِلِ مِنَ الحيتانِ ، وَتساءَلْتُ في يَأسٍ عَمَّا إذا كانَ لَدَيْنا فُرْصَةٌ لِلْخَلاصِ مِمَّا نَحْنُ فيهِ . وَظَلِلْنا نَتَرَقَّبُ – في قَلَقٍ شَديدٍ – حُدوثَ ثُغْرَةٍ في هَذا الجِدارِ المَتينِ مِنَ الحيتانِ المُتَكاتِفَةِ .

وَعلى حينِ غِرَّةٍ ، حَدَثَ شَيْءٌ ما أثارَ خَوْفَ الحيتانِ مَرَّةً أخرى ، مِمَّا جَعَلَ المَجْموعَةَ كُلَّها تُعاوِدُ السِّباحَةَ مِنْ جَديدٍ حَوْلَ قارِبِنا .

صاحَ ستارْبَك : « اطْرُدوها بَعيداً ضَرْبًا بِالمَجاديفِ ! ها هِيَ فَجْوَةٌ تَنْفَرِجُ بَيْنَها ، الآنَ ، شُدُّوا المَجاديفَ ، يا رِجالُ ! وَاضْرِبوا بِها المِياهَ ، وَادْفَعوا القارِبَ إلى الأمامِ إنْقاذاً لأَرْواحِكُمْ . »

خَرَجْنا مِنْ هَذِهِ الأزْمَةِ بِسَلامٍ ، وَلاحَظْنا أنَّ الحيتانَ تَنْصَرِفُ بَعيداً عَنَّا ، وَلا فائِدَةَ مِنْ تَعَقُّبِها ؛ فَقَدْ كانَ القارِبُ مُمْتَلِئًا بِالماءِ ، وَكُنَّا جَميعًا في حالَةٍ لا نُحْسَدُ عَلَيْها مِنَ التَّعَبِ وَالإرْهاقِ . فَمِنْ ذَلِكَ العَدَدِ الكَبيرِ مِنَ الحيتانِ لَمْ نَظْفَرْ إلا بِحوتٍ واحِدٍ ، وَفَرَّتْ جَميعُ الحيتانِ الأُخْرى هارِبَةً .

الفصل الثاني عشر

السَّفينَةُ الفَرَنْسِيَّةُ

كانَتِ الحَياةُ فَوْقَ سَفينَةِ صَيْدِ الحيتانِ بِالنِّسْبَةِ لي تَجْرِبَةً غايَةً في الغَرابَةِ . أحْيانًا نَكونُ مَشْغولينَ لأقْصى حَدٍّ ، حَيْثُ نَتَعَقَّبُ حوتًا حَتَّى نَظْفَرَ بِهِ – إذا ما حالَفَنا الحَظُّ – خِلالَ ساعَةٍ أوْ ساعَتَيْنِ . وَمَعَ ذَلِكَ لا يَعْدو هَذا أنْ يَكونَ بِدايَةً فَقَطْ لِلْعَمَلِ الجادِّ ؛ فَعَلَيْنا تَقْطيعُ وَاسْتِخْراجُ شَرائِحِ الدُّهونِ مِنْ جِسْمِهِ ، ثُمَّ غَلْيُها وَتَفْريغُ رَأْسِ الحوتِ مِمَّا يَحْويهِ مِنْ دُهونٍ ، وَنَزْعُ أسْنانِهِ وَعِظامِ الفَكِّ الطَّويلَةِ ، الَّتي تُعَدُّ أيْضًا أجْزاءً ثَمينَةً مِنَ الحوتِ . وَتَتَطَلَّبُ كافَّةُ هَذِهِ العَمَلِيَّاتِ ثَلاثَةَ أوْ أرْبَعَةَ أيَّامٍ .

وَفي أحْيانٍ أُخْرى ، لَمْ يَكُنْ لَدَيْنا – غالِبًا – أيُّ عَمَلٍ نَقومُ بِهِ ، اللَّهُمَّ إلا تَنْظيفَ السَّفينَةِ . أمَّا نَوْبَةُ المُراقَبَةِ الَّتي تَسْتَغْرِقُ ساعَتَيْنِ وَنَوْبَةُ قِيادَةِ السَّفينَةِ ، فَكانَتْ هَذِهِ أوْ تِلْكَ تَنْقَضي عَلى ما يَبْدو بِسُرْعَةٍ فائِقَةٍ ، لا نَشْعُرُ بِمُرورِ الوَقْتِ خِلالَها . وَفي بَعْضِ الأحْيانِ

كانَ علَيْنا أنْ نقومَ بإصْلاحِ الأشْرِعَةِ . ولَكِنِّي أتذكَّرُ السَّاعاتِ الطِّوالَ ، الَّتي كُنَّا نقْضيها فَقَطْ في الجُلوسِ على سَطْحِ السَّفينَةِ ، نَتجاذَبُ أطْرافَ الحَديثِ . فإذا كانَ الجَوُّ دافِئًا مُشْمِسًا فإنَّنا نَسْتَمْتِعُ بِأحاديثَ سارَّةٍ مُبْهِجَةٍ على الدَّوامِ ، حَيْثُ يَقُصُّ علَيْنا مُعْظَمُ البَحَّارَةِ أشْكالاً وألْوانًا مِنْ مُغامَراتِهِمْ وَمُخاطَراتِهِمْ مَعَ الحيتانِ .

اسْتَمَرَّتِ السَّفينَةُ بِيكْوُد في البَحْرِ حَتَّى وَصَلْنا إلى المُحيطِ الهِنْدِيِّ ، حَيْثُ كانَ الجَوُّ حارًّا والسَّماءُ مُلَبَّدَةً بالسُّحُبِ في أغْلَبِ الأحْيانِ . في ظِلِّ هَذا النَّوْعِ مِنَ الطَّقْسِ لَمْ تَكُنْ أحْسَنُ القَصَصِ – في اعْتِبارِنا – مُثيرَةً أو مُسَلِّيَةً . وَكُنْتُ أوَدُّ أنْ يَحْدُثَ شَيْءٌ ما يُبَدِّدُ هَذا المَلَلَ الَّذي طَغى علَيْنا ، وَرُبَّما كانَ البَحَّارَةُ يُضْمِرونَ نَفْسَ الإحْساسِ ، بَدَلاً مِنْ هَذِهِ الحَياةِ الرَّتيبَةِ الَّتي كانَتْ تَسيرُ على وَتيرَةٍ واحِدَةٍ ، خِلالَ مُدَّةٍ طَويلَةٍ . وَفِعْلاً حَدَثَ ما لَمْ يَكُنْ في الحُسْبانِ ، وَلَكِنَّهُ في أوَّلِ الأمْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا سارًّا على الإطْلاقِ .

انْدَلَعَتْ في الجَوِّ المُحيطِ بِنا رائِحَةٌ كَريهَةٌ ، هَبَّتْ علَيْنا مِنَ البَحْرِ .

قالَ سْتاب : « إنَّني أعْرِفُ هَذِهِ الرَّائِحَةَ . إنَّها رائِحَةُ حوتٍ مَيِّتٍ . »

وَعِنْدَما انْقَشَعَتِ السُّحُبُ شاهَدْنا على بُعْدٍ ، سَفينَةً تَرْفَعُ على ساريَتِها العَلَمَ الفَرَنْسِيَّ . وَمَرْبوطٌ إلى جانِبِها أحَدُ الحيتانِ ، الَّذي تَدُلُّ رائِحَتُهُ الكَريهَةُ على أنَّهُ مَيِّتٌ مُنْذُ أسْبوعٍ على الأقَلِّ ، أوْ رُبَّما مُنْذُ أسْبوعَيْنِ . وَيَبْدو أنَّهُ ماتَ في البَحْرِ مِيتَةً طَبيعِيَّةً ، فَبَعْضُ البَحَّارَةِ يَصْبِرونَ على تَحَمُّلِ هَذِهِ الرَّائِحَةِ ؛ مِنْ أجْلِ الحُصولِ على دُهْنِ الحوتِ ، مَعَ أنَّ الدُّهونَ الَّتي تُسْتَخْرَجُ مِنْ مِثْلِ هَذا الحوتِ المَيِّتِ لَنْ تَكونَ جَيِّدَةً على الإطْلاقِ .

وَعِنْدَما اقْتَرَبْنا مِنَ السَّفينَةِ الفَرَنْسِيَّةِ لاحَظْنا وُجودَ حوتٍ آخَرَ مَرْبوطٍ بِجانِبِها . وَكانَ في نَفْسِ الحالَةِ السَّيِّئَةِ وَتَفوحُ مِنْهُ رائِحَةُ العُفونَةِ .

وَزادَ المَوْقِفَ سوءًا هُدوءُ الرِّياحِ ، وَلا طاقَةَ لَنا بالفِرارِ مِنْ هَذِهِ الرَّائِحَةِ الكَريهَةِ ، الَّتي زَكَمَتْ أنوفَنا وَضاقَتْ بِها صُدورُنا ، حَتَّى كَرِهْنا تَنَفُّسَ الهَواءِ المَخْلوطِ بِها .

صاحَ رُبَّانُنا بالتَّحِيَّةِ المُتَعارَفِ علَيْها بَيْنَ السُّفُنِ في البِحارِ ، مُتَسائِلاً عَمَّا إذا كانَ على السَّفينَةِ الفَرَنْسِيَّةِ أحَدٌ يَتَكَلَّمُ اللُّغَةَ الإنْجليزِيَّةَ .

أجابَ صَوْتٌ مِنَ السَّفينَةِ الأخْرى : « نَعَمْ . »

« هَلْ شاهَدْتُم الحوتَ الأَبْيَضَ ؟»

« أيُّ حوتٍ ؟»

« الحوتُ الأَبْيَضُ – مُوبي دِك ، هَلْ رَأَيْتُموهُ ؟»

« لا ! لَمْ نَسْمَعْ قَطُّ عَنْ مِثْلِ هَذا الحوتِ .»

« لِماذا تَحْجِزونَ تِلْكَ الحيتانَ بِجانِبِ السَّفينَةِ ؟ أ لا تَعْرِفونَ أَنَّكُمْ لا تَسْتَطيعونَ الاسْتِفادَةَ مِنْ دُهونِها ؟ وَكَيْفَ تُطيقونَ احْتِمالَ هَذِهِ الرّائِحَةِ العَفِنَةِ ؟»

« إنَّني أَعْرِفُ ذَلِكَ جَيِّداً ، وَلَكِنَّ الرُّبّانَ لا يُصَدِّقُ ذَلِكَ . فَهَذِهِ أَوَّلُ رِحْلَةٍ بَحْرِيَّةٍ لَهُ عَلى سَفينَةٍ لِصَيْدِ الحيتانِ . هَلْ تَسْمَحُ بِالحُضورِ إلى سَفينَتِنا لإقْناعِهِ ؟ رُبَّما يُصَدِّقُ ما تَقولُ .»

أَخَذَ ستاب قارِباً وَقادَهُ بِنَفْسِهِ إلى السَّفينَةِ الأُخْرى ، حَيْثُ وَجَدَ جَميعَ البَحّارَةِ الفَرَنْسِيّينَ يَشْكونَ مُرَّ الشَّكْوى مِنْ هَذِهِ الرّائِحَةِ الكَريهَةِ ، وَكَثيراً مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ تَفَشّي الأَمْراضِ بَيْنَهُمْ .

حَضَرَ الرُّبّانُ الفَرَنْسِيُّ لِمُقابَلَةِ ستاب ، وَقالَ الضّابِطُ الفَرَنْسِيُّ ، الَّذي يَتَحَدَّثُ الإنْجليزِيَّةَ ، لِستاب : « مِنْ فَضْلِكَ ! أَرْجو أَنْ تُقَدِّمَ لَنا ما تَسْتَطيعُ مِنْ عَوْنٍ ؛ فَإنَّ رُبّانَ سَفينَتِنا لا يَفْهَمُ أَنَّ هَذِهِ الرّائِحَةَ

المُنْبَعِثَةَ مِنَ الحيتانِ المَيِّتَةِ تَحْمِلُ في طَيّاتِها خَطَراً مُحَقَّقاً .»

قالَ ستاب : « وَلَكِنَّهُ لا يَتَحَدَّثُ اللُّغَةَ الإنْجليزِيَّةَ . وَلِذَلِكَ سَنَتَّفِقُ عَلى تَنْفيذِ خُطَّةٍ بَسيطَةٍ لِخِداعِهِ ، وَلَكِنَّها سَتُساعِدُكُمْ كَثيراً ؛ سَأَتَحَدَّثُ إلَيْكَ بِاللُّغَةِ الإنْجليزِيَّةِ ، وَفي إمْكانِكَ أَنْ تَتَظاهَرَ بِأَنَّني أُقَدِّمُ لَكَ النَّصيحَةَ بِخُصوصِ هَذا المَوْضوعِ . وَحينَئِذٍ تَسْتَطيعُ أَنْ تُخْبِرَ رُبّانَكَ بِاللُّغَةِ الفَرَنْسِيَّةِ ما تُريدُ أَنْ يَفْعَلَهُ .»

بَدَأَ ضابِطُ السَّفينَةِ الفَرَنْسِيَّةِ يُخاطِبُ رُبّانَهُ بِاللُّغَةِ الفَرَنْسِيَّةِ ، مُدَّعِياً أَنَّهُ يَنْقُلُ إلَيْهِ حَديثَ ستاب : « إنَّهُ يَقولُ ، بِالأَمْسِ فَقَطْ قابَلَ سَفينَةً أُخْرى ، ماتَ رُبّانُها وَضابِطٌ مِنْ ضُبّاطِها وَسِتَّةٌ مِنْ بَحّارَتِها ؛ بِسَبَبِ إصابَتِهِمْ جَميعاً بِمَرَضٍ انْتَقَلَ إلَيْهِمْ مِنْ حوتٍ مَيِّتٍ ، كانَ مَرْبوطاً بِسَفينَتِهِمْ .»

عِنْدَما سَمِعَ الرُّبّانُ ذَلِكَ بَدَتْ عَلَيْهِ الدَّهْشَةُ وَالاسْتِغْرابُ ، وَقالَ: « أَخْبِرْني بِمَزيدٍ مِنَ المَعْلوماتِ عَنْ هَذا الحادِثِ .»

قالَ الضّابِطُ الفَرَنْسِيُّ لِستاب : « ماذا نَفْعَلُ الآنَ ؟»

أَجابَ ستاب : « حَسَنٌ ! إنَّهُ لا يَفْهَمُ كَلِمَةً واحِدَةً مِمّا أَقولُ . وَلَكِنَّني نَظَرْتُ إلَيْهِ نَظْرَةً فاحِصَةً ، وَلا أَعْتَقِدُ في الحَقيقَةِ أَنَّهُ الشَّخْصُ المُناسِبُ لِيَكونَ قائِداً لِسَفينَةٍ عَلى الإطْلاقِ .»

وَهُنا قالَ الضّابِطُ الفَرَنْسِيُّ لِرُبّانِهِ كَأَنَّهُ يَنْقُلُ إِلَيْهِ كَلامَ ستاب :

« إِنَّهُ يُخْبِرُني بِأَنَّ هَذِهِ الحيتانَ المَيِّتَةَ خَطيرَةٌ ، وَإِذا كُنّا نَخْشى عَلى أَرْواحِنا ؛ فَمِنَ الواجِبِ عَلَيْنا أَنْ نُطْلِقَ سَبيلَ هَذَيْنِ الحوتَيْنِ بَعيداً عَنِ السَّفينَةِ . »

لَمْ يَكَدِ الرُّبّانُ يَسْمَعُ هذا الكَلامَ حَتّى جَرى إِلى الأَمامِ ، وَصاحَ في البَحّارَةِ : « اقْطَعوا الحِبالَ ، وأَلْقوا الحوتَيْنِ في البَحْرِ . »

قالَ الضّابِطُ الفَرَنْسِيُّ لِستاب مُتَسائِلاً : « ماذا نَفْعَلُ بَعْدَ ذَلِكَ ؟ »

أَجابَ ستاب : « تَسْتَطيعُ أَنْ تُخْبِرَهُ أَيْضاً أَنَّني في حَقيقَةِ الأَمْرِ قَدْ خَدَعْتُهُ . »

قالَ الضّابِطُ الفَرَنْسِيُّ مُخاطِباً الرُّبّانَ مَرَّةً أُخْرى : « سَيِّدي ، إِنَّهُ يَقولُ بِأَنَّهُ يَشْعُرُ بِالسَّعادَةِ الحَقَّةِ ، وَأَنَّهُ مَسْرورٌ جِدًّا لأَنَّ الظُّروفَ قَدْ أَتاحَتْ لَهُ فُرْصَةً لِتَقْديمِ المُساعَدَةِ لَنا . »

عِنْدَئِذٍ طَلَبَ الرُّبّانُ الفَرَنْسِيُّ مِن ستاب أَنْ يَتَفَضَّلَ بِتَناوُلِ كَأْسٍ مِنَ العَصيرِ مَعَهُ .

أَجابَ ستاب : « شُكْرًا جَزيلاً . وَأَرْجو أَنْ تُخْبِرَهُ بِأَنَّني لا أَشْرَبُ مَعَ رَجُلٍ اشْتَرَكْتُ في خِداعِهِ ، وَأَنَّني يَجِبُ أَنْ أَعودَ إِلى سَفينَتي

الآنَ . »

قالَ الضّابِطُ الفَرَنْسِيُّ لِرُبّانِهِ : « يَقولُ إِنَّهُ مِنَ الأَفْضَلِ إِنْزالُ كافَّةِ القَوارِبِ في البَحْرِ ، واسْتِخْدامُها في جَذْبِ السَّفينَةِ بَعيداً عَنِ الحيتانِ المَيِّتَةِ ، حَيْثُ لا أَثَرَ لِرِياحٍ تَدْفَعُ الحوتَيْنِ بَعيداً عَنِ السَّفينَةِ . »

وَكانَ لَدى ستاب حَبْلٌ طَويلٌ في قارِبِهِ ، فَأَخْبَرَ الفَرَنْسِيّينَ أَنَّهُ سَيُعاوِنُهُمْ بِسَحْبِ أَصْغَرِ الحوتَيْنِ حَجْماً ، بَعيداً عَنْ سَفينَتِهِمْ .

وَبَعْدَ فَتْرَةٍ يَسيرَةٍ ، بَدَأَتِ الرِّياحُ تَهُبُّ ، وَتَظاهَرَ ستاب بِأَنَّهُ سَيُطْلِقُ سَراحَ الحوتِ لِيَطْفُوَ فَوْقَ سَطْحِ الماءِ .

الفصل الرابع عشر

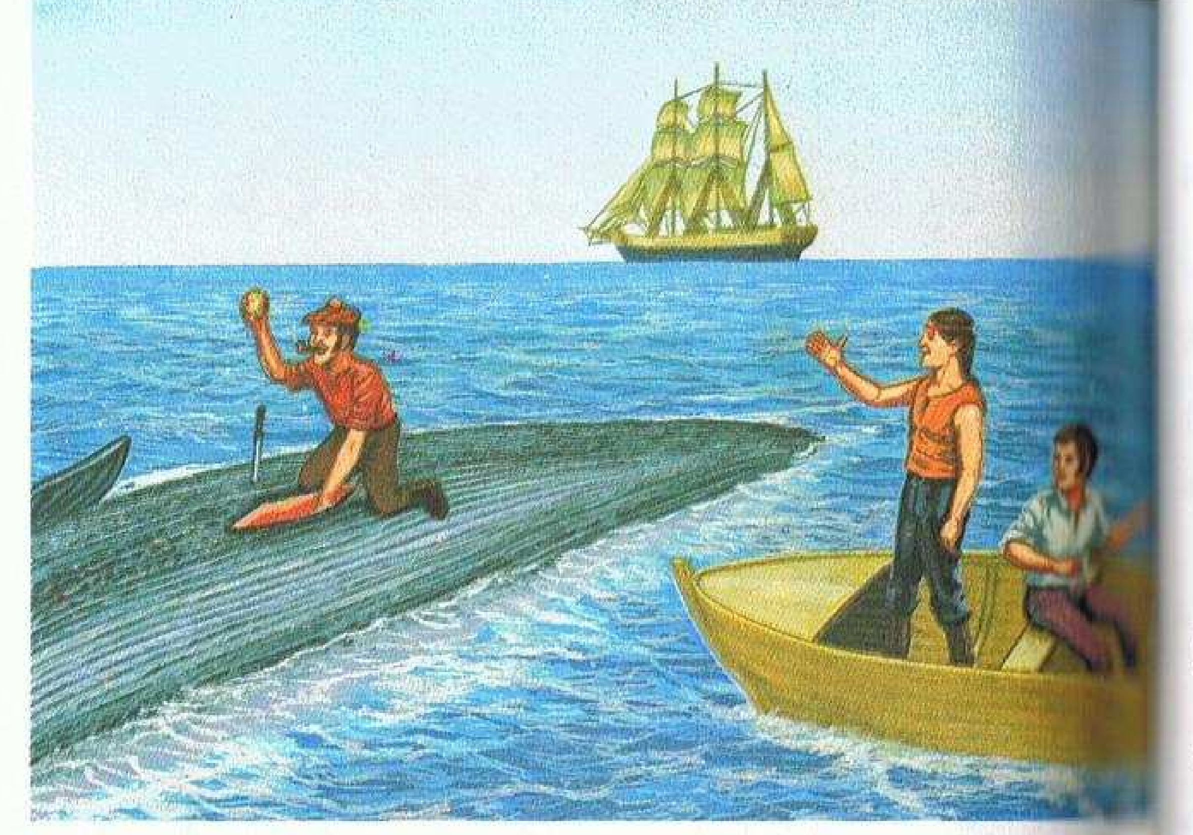
اسْتِخْراجُ العَنْبَرِ مِنَ الحوت

لَمْ تَكَدِ السَّفينةُ الفَرَنْسِيَّةُ تُبْحِرُ بَعيداً ، حَتَّى أَسْرَعَ ستاب عائداً إلى الحوتِ المَيِّتِ ، وَانْهمَكَ يَحْفِرُ في جُثَّتِهِ بِخَنْجَرٍ طَويلٍ ، حَتَّى شَقَّ فُتْحَةً عَميقَةً .

وَفَجْأَةً صاحَ في بَهْجَةٍ غامِرَةٍ : « لَقَدْ وَجَدْتُهُ ! لَقَدْ عَثَرْتُ عَلَيْهِ أخيراً ! »

كانَت الرَّائِحَةُ الكَريهَةُ لا تَزالُ تُحيطُ بِالحوتِ وَبِالمَنْطِقَةِ كُلِّها ، وَلكِنَّها أَضْحَتِ الآنَ مَمْزوجَةً بِرائِحَةٍ عَطِرَةٍ لِلْغايَةِ ، تَسْري خِلالَها ، بَلْ تَكادُ تَتَغلَّبُ عَلَيْها . وَفي الحالِ أَسْقَطَ ستاب الخَنْجَرَ وَدَفَعَ يَدَيْهِ داخِلَ الفُتْحَةِ ، وَأَخَذَ يَسْحَبُ حَفَناتٍ مِنْ مادَّةٍ تُشْبِهُ الصَّابونَ ، يَنْبَعِثُ مِنها رائِحَةٌ جِدُّ مُنْعِشَةٍ .

قالَ ستاب : « إِنَّهُ العَنْبَرُ ، الَّذي يُعْطي رائِحَةً طَيِّبَةً لأَشْياءَ كَثيرَةٍ ،



مِثْلِ الصَّابونِ وَالبودْرَةِ وَالمَساحيقِ الأُخْرى ، وَلَهُ قيمَةٌ ثَمينَةٌ ، عَلى الأَخَصِّ في تُرْكِيا ، حَيْثُ يَسْتَخْدِمُهُ المُواطِنونَ هُناكَ في طَهْيِ طَعامِهِمْ . »

هٰذِهِ المادَّةُ العَطِرَةُ مِنَ العَنْبَرِ توجَدُ عادَةً في الحيتانِ المَريضَةِ فَقَطْ . وَكانَ ستاب يَعْرِفُ ذٰلِكَ جَيِّداً عِنْدَما خَدَعَ البَحَّارَةَ الفَرَنْسِيِّينَ بِالتَّخَلّي عَنِ الحوتَيْنِ المَرْبوطَيْنِ بِسَفينَتِهِمْ .

الفصل الخامس عشر

أخبارٌ عَنِ الحوتِ الأبْيَض

واصَلْنا رِحْلَةَ الصَّيْدِ عَبْرَ المُحيطِ لأسابيعَ عَديدَةٍ ، كانَ خِلالَها الرُّبّانُ آخاب يَقِفُ كُلَّ يَوْمٍ بِساقِهِ المَصْنوعَةِ مِنْ عِظامِ الحوتِ ، الّتي اعْتادَ أنْ يَضَعَها في فُتْحَةٍ على سَطْحِ السَّفينَةِ ، وَمِنْ وَقْتٍ لآخَرَ يُنادي رَجُلَ المُراقَبَةِ القابِعَ عِنْدَ قِمَّةِ الصّاري ، مُتَسائِلاً : « هَلْ هُناكَ أيُّ دَليلٍ على ظُهورِ الحوتِ الأبْيَضِ ؟ هَلْ شاهَدْتَ مُوبي دِك ؟»

وَلَكِنَّ الإجابَةَ كانَتْ دائِماً مُخَيِّبَةً لِلآمالِ . لا دَليلَ وَلا عَلامَةَ وَلا أدْنى إشارَةٍ أيًّا كانَ نَوْعُها ، تُشيرُ إلى ظُهورِ مُوبي دِك حَتَّى الآنَ .

وَذاتَ يَوْمٍ مَرَّتْ عَلَيْنا سَفينَةٌ تَرْفَعُ العَلَمَ الإنْجليزِيَّ . وَرَأيْنا رُبّانَها على سَطْحِها . كانَ رَجُلاً وَسيماً يَرْتَدي مِعْطَفاً أزْرَقَ تَطيرُ إحْدى ذِراعَيْهِ في الهَواءِ مَعَ الرِّياحِ .

صاحَ آخاب بِالتَّحِيَّةِ البَحْرِيَّةِ ، وَسَألَ كَعادَتِهِ : « هَلْ رَأيْتُمْ حوتاً أبْيَضَ ؟»

أجابَ الرُّبّانُ الإنْجليزِيُّ : « هَلْ تَرى هَذا ؟» وَفَتَحَ صَدْرَ مِعْطَفِهِ وَرَفَعَ ذِراعاً بَيْضاءَ اللَّوْنِ . وَفي دَهْشَةٍ مِنّا جَميعاً شاهَدْنا أنَّها مَصْنوعَةٌ مِنْ عِظامِ الحوتِ ، وَفي نِهايَةِ هَذِهِ الذِّراعِ قِطْعَةٌ مِنَ الخَشَبِ عَلى هَيْئَةِ مِطْرَقَةٍ بَدَلاً مِن اليَدِ. وَبِحَرَكَةٍ لا شُعورِيَّةٍ صاحَ آخاب عَلى الفَوْرِ : « أعِدُّوا قارِبي !» وَبَعْدَ دَقيقَةٍ واحِدَةٍ كانَ في طَريقِهِ إلى السَّفينَةِ الأخْرى ، وَبَحّارَتُهُ سُمْرُ البَشَرَةِ يُجَدِّفونَ بِقُوَّةٍ وَفُتُوَّةٍ ، عَلى حينِ قائِدُهُمْ ذُو الشَّعْرِ الأبْيَضِ يُوَجِّهُ دَفَّةَ القارِبِ .

رَحَّبَ الرُّبّانُ الإنْجليزِيُّ بِآخاب تَرْحيباً حارًّا ، وَقَدَّمَ لَهُ التَّحِيَّةَ الواجِبَةَ ، وَمَدَّ لَهُ ذِراعَهُ الصِّناعِيَّةَ تَعْبيراً عَنْ مَشاعِرِهِ الوُدِّيَّةِ .

صاحَ آخاب : « هَكَذا تَتَلاقى ذِراعٌ وَساقٌ ! ذِراعٌ لَنْ يَتَسَرَّبَ إلَيْها الضَّعْفُ وَالوَهَنُ أبَداً ! وَساقٌ لَن تَسْتَطيعَ الجَرْيَ أبَداً ! أيْنَ الْتَقَيْتَ الحوتَ الأبْيَضَ ؟ وَمَتى ؟»

أشارَ الرُّبّانُ الإنْجليزِيُّ إلى جِهَةِ الشَّرْقِ ، قائِلاً : « هُناكَ ! الْتَقَيْتُهُ في العامِ الماضي .»

« هَلْ هُوَ الّذي انْتَزَعَ مِنْكَ تِلْكَ الذِّراعَ ؟»

« نَعم هُوَ الَّذي بتَرَ ذِراعي . هَلْ هُوَ الَّذي نزَعَ ساقَكَ أَيْضاً ؟»

قالَ آخاب : « أخبِرْني ، كَيْفَ حَدَثَ ذَلِكَ ؟»

« في ذَلِكَ الوَقْتِ لَمْ أَكُنْ أَعلَمُ شيْئاً عَنِ الحُوتِ الأَبْيَضِ ، وَذاتَ يَوْمٍ أَرْسَلْنا قَوارِبنا لِصَيْدِ أَحَدِ الحيتانِ . وَفِعْلاً اصْطَدْنا واحِداً مِنْها في الحالِ . وَفَجْأَةً انْشَقَّ قاعُ البَحْرِ عَنْ شَبَحٍ أَبْيَض كَبيرٍ – حُوتٍ ضَخْمٍ ذي رَأْسٍ وَظَهْرٍ في بَياضِ اللَّبَنِ ، وَيُغَطّي جِلْدَهُ كُلَّهُ آثارُ جُروحٍ كَثيرَةٍ .»

لَمْ يَتَمالَكْ آخاب نَفْسَهُ فَقاطَعَهُ صائِحاً : « إِنَّهُ هُوَ ! مُوبي دِك !»

اسْتَطْرَدَ الرُّبّانُ الإِنْجليزِيُّ قائِلاً : « وَهُناكَ عَدَدٌ مِنَ الحِرابِ مَغْرُوزَةً فيهِ .»

قاطَعَهُ آخاب مَرَّةً أُخْرى : « أَجَلْ ، أَجَلْ . إِنَّها حِرابي الَّتي أَصَبْتُهُ بِها . وَلَكِنْ أَخْبِرْني بِالمَزيدِ عَمّا حَدَثَ .»

قالَ الرُّبّانُ الإِنْجليزِيُّ : « اصْبِرْ قَليلاً ، وَأَعْطِني فُرْصَةً لِلْحَديثِ . هَذا الحوتُ الهائِلُ انْدَفَعَ نَحْونا ، وَأَخَذَ يَقْرِضُ الحَبْلَ المَرْبوطَ بِالحَرْبَةِ الَّتي أَصابَتِ الحوتَ الآخَرَ ، كَأَنَّهُ يُريدُ أَنْ يُنْقِذَهُ مِنّا .»

« نَعَمْ ! إِنَّني أَعْرِفُهُ تَماماً ! هَذِهِ إِحْدى خُدَعِهِ القَديمَةِ مِنْ أَجْلِ

إِطْلاقِ سَراحِ الحوتِ الآخَرِ .»

« إِنَّهُ أَضْخَمُ حوتٍ رَأَيْتُهُ في حَياتي . كانَ سَبَباً في أَنِ انْدَلَعَتْ في نَفْسي رَغْبَةٌ مُلِحَّةٌ ، لَمْ أَشْعُرْ بِها مِنْ قَبْلُ ، لِلظَّفَرِ بِهِ . كُنّا عَلى مَقْرُبَةٍ مِنْهُ ، فَالْتَقَطْتُ حَرْبَةً وَأَطْلَقْتُها نَحْوَهُ بِكُلِّ ما أوتيتُ مِنْ عَزْمٍ ، حينَئِذٍ دارَتِ الدُّنْيا بي ، وَأَظْلَمَتْ مِنْ حَوْلي ، فَقَدْ أَعْمَتْني مِياهُ البَحْرِ ، الَّتي لَطَمَتْ وَجْهي في انْدِفاعٍ شَديدٍ ، وَمَرَّ ذَيْلُهُ رَأْساً فَوْقَ رَأْسي ، ثُمَّ هَوى عَلى القارِبِ فَفَصَلَهُ جُزْأَيْنِ ، وَأَلْقى بِنا في الماءِ . وَلِكَيْ أَنْجُوَ بِنَفْسي مِنْ ضَرَباتِ ذَيْلِهِ العَنيفَةِ ، قَبَضْتُ عَلى الحَرْبَةِ الَّتي رَشَقْتُها فيهِ ، وَلَكِنَّهُ غاصَ في أَعْماقِ البَحْرِ وَغُصْتُ مَعَهُ . وَطوالَ تَشَبُّثي بِالحَرْبَةِ هابِطاً مَعَها إِلى القاعِ ، أَحْدَثَتْ قَطْعاً عَميقاً عَلى طولِ ذِراعي حَتّى يَدي . عِنْدَئِذٍ حَمَلَتْني المِياهُ بَعيداً عَنْهُ ، بَعْدَ أَنْ مَزَّقَتِ الحَرْبَةُ ذِراعي ، وَصَعِدَتْ بي إِلى السَّطْحِ حَيْثُ وَجَدْتُ نَفْسي طافِياً فَوْقَها .»

لَمْ يُبْدِ آخاب أَيَّ اهْتِمامٍ بِما حَدَثَ لِذِراعِ الرُّبّانِ الإِنْجليزِيِّ ، قَدْرَ اهْتِمامِهِ وَتَرْكيزِ كُلِّ تَفْكيرِهِ وَمَشاعِرِهِ عَلى مُوبي دِك ، فَابْتَدَرَهُ مُتَسائِلاً : « وَماذا حَدَثَ لِلْحوتِ الأَبْيَضِ ؟ هَلْ شاهَدْتَهُ مَرَّةً أُخْرى ؟»

« أَجَلْ رَأَيْتُهُ مَرَّتَيْنِ .»

« هَل استَطَعْتَ الإمْساكَ بِهِ ؟»

« لَمْ يَعُدْ لَديَّ أدْنى رَغْبَةٍ في القِيامِ بِمُحاوَلَةٍ أخْرى . أ لَمْ يَكُنْ كافِيًا فَقْدُ ذِراعٍ واحِدَةٍ ؟ وَماذا عَسايَ أنْ أفْعَلَ إذا ما فَقَدْتُ ذِراعِيَ الأخْرى ؟ لَقَدْ قَرَّرْتُ ألا أقْدِمَ على أيَّةِ مُحاوَلَةٍ أخرى لِصَيْدِ الحوتِ الأبْيَضِ . لَقَدْ نازَلْتُهُ مَرَّةً واحِدَةً انْتَهَتْ بِكارِثَةٍ وَعاهَةٍ مُسْتَديمَةٍ . وَهَذا يَكفي تَمامًا ! حَقًّا ، إنَّني غالِبًا ما أعْتَقِدُ أنَّ الشُّهْرَةَ وَذُيوعَ الصِّيتِ سَتُتَوِّجُ رَأسَ الرَّجُلِ الَّذي يَقْتُلُ الحوتَ الأبْيَضَ . وَلكِنْ مِنَ الأفْضَلِ أنْ نَتْرُكَ الحوتَ الأبْيَضَ وَشَأنَهُ . أ لا تُوافِقُني عَلى ذَلِكَ أيُّها الرُّبّانُ ؟» وَنَظَرَ في تَفْكيرٍ عَميقٍ إلى ساقِ آخاب الاصْطِناعِيَّةِ نَظْرَةً لَها أكْثَرُ مِنْ مَعْنًى .

« نَعَمْ ، رُبَّما . وَلكِنَّهُ مَعَ ذَلِكَ سَيَجِدُ مَنْ يَظْفَرُ بِهِ وَيَقْضي عَلَيْهِ يَوْمًا ما . كَمْ مِنَ الزَّمَنِ انْقَضى مُنْذُ أنْ شاهَدْتَهُ آخِرَ مَرَّةٍ ؟ وَأيُّ جِهَةٍ كانَ يَقْصِدُها ؟»

وَقَبْلَ أنْ يَرُدَّ عَلَيْهِ الرُّبّانُ الإنْجليزِيُّ اسْتَدارَ آخاب بِحَرَكَةٍ سَريعَةٍ إلى رَئِيسِ بَحّارَتِهِ ذي الشَّعْرِ الأبْيَضِ ، آمِرًا : « فَيْضَ اللّهِ ! أحْضِرْ قارِبي . سَأعودُ فَوْرًا إلى السَّفينَةِ .»

صاحَ الرُّبّانُ الإنْجليزِيُّ : « ماذا حَدَثَ ؟ ماذا دَهاكَ ؟»

وَهَمَسَ في أُذُنِ فَيْضِ اللّهِ : « هَلْ أصابَ رُبّانَكَ مَسٌّ مِنَ الجُنونِ ؟» وَلكِنَّ فَيْضَ اللّهِ وَضَعَ أصْبَعَهُ عَلى فَمِهِ ، وَلَمْ يَتَفَوَّهْ بِكَلِمَةٍ واحِدَةٍ .

رَجَعَ آخاب إلى قارِبِهِ ، وَجَدَّفَ بَحّارَتُهُ عائِدينَ إلى السَّفينَةِ بِيكْوُد .

الفصل السادس عشر

أيُّها الرُّبَّانُ ! عَلَيْكَ أنْ تَكْبَحَ جِماحَ نَفسِكَ

هُناكَ دائماً بَعضُ المِياهِ في الجُزْءِ السُّفْلِيِّ لِكُلِّ سَفينَةٍ شِراعيَّةٍ ، وَلكِنَّ المِياهَ تَجمَّعَتْ بِكَمِّيَّاتٍ كَبيرَةٍ داخِلَ السَّفينَةِ بيكُوْد ، لأنَّها مَكَثَتْ في البَحْرِ مُدَّةً طَويلَةً . لِذلِكَ قَرَّرَ الضُّبَّاطُ ذاتَ يَوْمٍ نَزْحَها مِنْ قاعِ السَّفينَةِ . وَقَدْ لاحَظَ ستاربَك أنَّ هذِهِ المِياهَ قَدِ امْتَزَجَتْ بِزُيوتٍ هِيَ بِطَبيعَةِ الحالِ مِنْ زُيوتِ الحوتِ ؛ فَتَوجَّهَ فَوْراً إلى الرُّبَّانِ آخاب لِيُفْضِيَ إلَيْهِ بِهذا النَّبأ الخَطيرِ ؛ إذْ إنَّ ذلِكَ يَعْني أنَّ زُيوتَ الحوتِ تَتَسَرَّبُ مِنَ البَراميلِ الخَشَبيَّةِ الكَبيرَةِ المَخْزونَةِ فيها .

لَمْ تَكُنِ السَّفينَةُ بيكُوْد في ذلِكَ الحينِ بَعيدَةً عَنِ اليابانِ ، وَكانَ آخاب عاكِفاً عَلى دِراسَةِ خَرائطِهِ . وَحينَ شَعَرَ بِاقْتِرابِ أحَدٍ مِنْهُ ، قالَ دونَ أنْ يَلْتَفِتَ إليه : « مَنْ هُناكَ ؟ ارْجِعْ مِنْ حَيْثُ أَتَيْتَ ! »

أجابَ ستاربَك : « إنَّهُ ستاربَك ، يا سَيِّدي الرُّبَّانَ . إنَّ الزُّيوت

المَحفوظَةَ في المَخْزَنِ تَنْسابُ مِنَ البَراميلِ ، وَلا بُدَّ مِنْ أنْ نَهبِطَ إلَيْها لِفَحْصِها وَاكْتِشافِ حَقيقَةِ الأمْرِ . »

قالَ آخاب : « هَلْ يُمكِنُ القِيامُ بِهذِهِ العَمَليَّةِ الآنَ ؟ إنَّنا نوشِكُ عَلى الوُصولِ إلى فُورْمُوزا ، وَعَلَيْكَ أنْ تُسْرِعَ بِتَنْفيذِها ، فَلَيْسَ في اسْتِطاعَتِنا أنْ نُضَيِّعَ أسْبوعاً في إصْلاحِ البَراميلِ . »

كانَتْ عَمَليَّةُ فَحْصِ كافَّةِ البَراميلِ عَمَلاً شاقّاً في غايَةِ الصُّعوبَةِ ، فَضْلاً عَنْ أنَّ قاعَ السَّفينَةِ مَكانٌ بارِدٌ يُخَيِّمُ عَلَيْهِ الظَّلامُ . وَرَغْمَ ذلِكَ كانَ عَلى البَحَّارَةِ العَمَلُ فيهِ مُدَّةَ يَوْمَيْنِ ، وَلكِنَّ المَرَضَ أصابَ كويكوِغ بَعْدَ اليَوْمِ الأولِ ؛ لأنَّهُ لَمْ يَتَحمَّلِ العَمَلَ في هَذا الجَوِّ الرَّطْبِ الخانِقِ ، وَهُوَ الَّذي يَعْشَقُ الهَواءَ المُنْعِشَ وَأشِعَّةَ الشَّمْسِ . ازْدادَ عَلَيْهِ المَرَضُ يَوماً بَعْدَ يَوْمٍ ، وَساءَتْ حالَتُهُ وَتَدَهْوَرَتْ صِحَّتُهُ ، لِدَرَجَةِ أنَّ كُلَّ واحِدٍ مِنَّا ظَنَّ أنَّ نِهايَتَهُ قَدْ حانَتْ ، وَلا أمَلَ في شِفائِهِ ، حَتَّى كويكوِغ نَفْسُهُ داخَلَهُ شُعورٌ أكيدٌ بِاقْتِرابِ مَنِيَّتِهِ ؛ فَهَمَسَ قائلاً: « عَلَيْكُمْ أنْ تُعِدُّوا لي تابوتاً . »

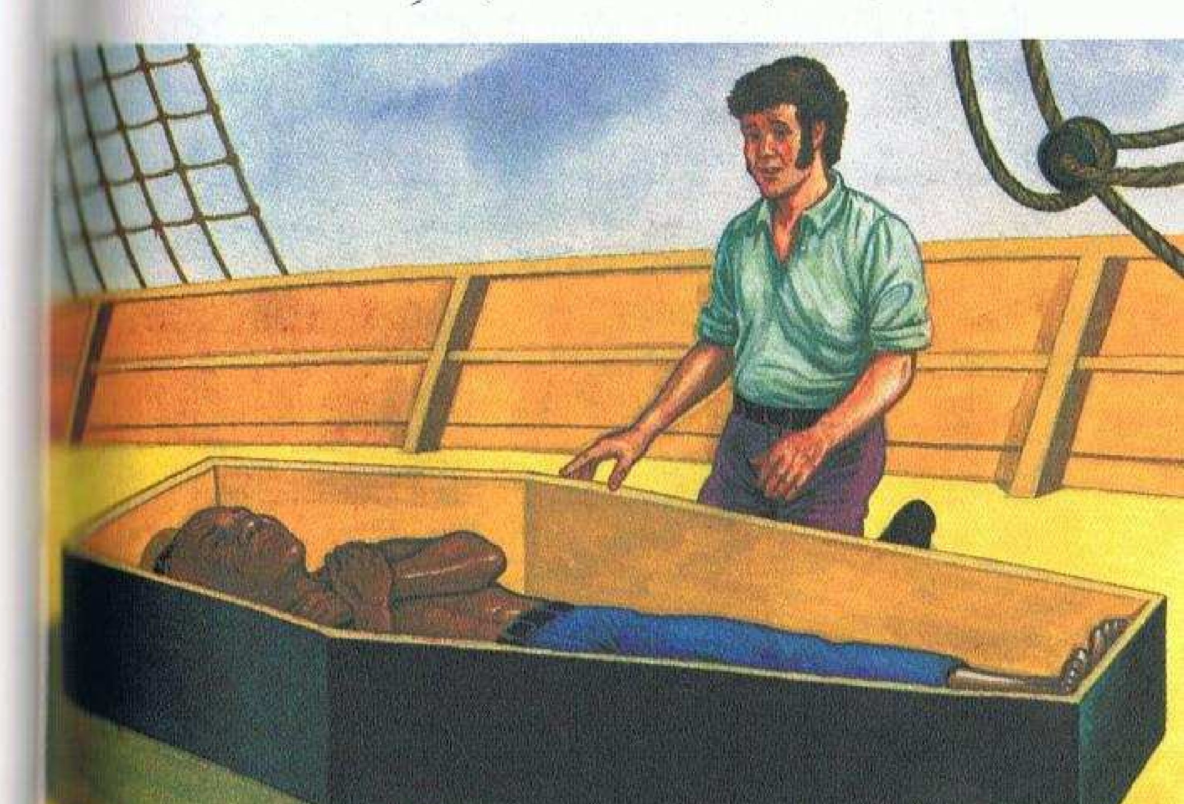
وَبِكُلِّ مَشاعِرِ الحُزْنِ وَالأسى ، صَنَعَ البَحَّارَةُ لَهُ تابوتاً مِنَ الأخْشابِ المُلْقاةِ بِمَخْزَنِ السَّفينَةِ .

قالَ كويكوِغ : « ضَعوني فيهِ مَعَ بَعْضِ الخُبْزِ وَالماءِ . »

وَهكَذا رَقَدَ كويكْوغ في التّابوتِ ، وَتحْتَ رَأسِهِ وِسادَةٌ صَغيرَةٌ ، وَذِراعاهُ فَوْقَ صَدْرِهِ مُتقاطِعَتانِ .

وَأخيراً قالَ في صَوْتٍ خافِتٍ : « أخْرِجوني مِنْهُ الآنَ . »

وَلكِنْ بَعْدَ أنِ اسْتَعَدَّ لِلْمَوتِ بِهذِهِ الطَّريقَةِ ، قَرَّرَ كويكْوغ ألا يَسْتَسْلِمَ لَهُ ، وَقاوَمَ المَرَضَ مُتَحَمِّلاً ما يُعانيهِ مِنْهُ . وَرُوَيْداً رُوَيْداً تَحَسَّنَتْ صِحَّتُهُ . وَمُنْذُ ذلِكَ اليَوْمِ نَفَضَ عَنْ كاهِلِهِ شَبَحَ المَرَضِ وَآلامِهِ ، وَدَبَّتِ القُوَّةُ في أوْصالِهِ ، وَسَرَتِ الصِّحَّةُ وَالعافِيَةُ في أعْضائِهِ ، حَتّى غَدا قَوِيّاً كَما كانَ ، وَعادَ لِلْعَمَلِ مَرَّةً أخْرى .



وَفي غَيْرِ أوْقاتِ الصَّيْدِ ، كانَ كويكْوغ غالِباً ما يُساعِدُ أحَدَ البَحّارَةِ الآخَرينَ في عَمَلِهِ . فَكانَ يُعاوِنُ صانِعَ المَعادِنِ المَسْئولَ عَنْ جَميعِ الخَناجِرِ وَالحِرابِ ، الَّتي تُسْتَخْدَمُ في صَيْدِ الحيتانِ ، وَالمُحافَظَةِ عَلَيْها حادَّةً مَسْنونَةً وَجاهِزَةً لِلْعَمَلِ . وَكانَ البَحّارَةُ يُعْطونَهُ خَناجِرَهُمْ لِيَشْحَذَها لَهُمْ .

وَفي يَوْمٍ مِنَ الأيّامِ كانَ هذا الصّانِعُ واقِفاً أمامَ مَوْقِدِهِ الَّذي تَشْتَعِلُ فيهِ النّارُ ، يُؤدّي عَمَلَهُ المُعْتادَ . وَبَيْنَما كانَ يَسْحَبُ مِنَ النّارِ رَأسَ حَرْبَةٍ مُتَوَهِّجاً أحْمَرَ ، وَيَطْرُقُ عَلَيْهِ لِيُشَكِّلَهُ كَما يَشاءُ ، إذا بِالرُّبّانِ آخاب يَحْضُرُ إلَيْهِ حامِلاً حَقيبَةً جِلْدِيَّةً صَغيرَةً .

سَألَهُ : « ماذا تَصْنَعُ الآنَ ؟ »

« أقومُ بِإصْلاحِ رَأسِ حَرْبَةٍ قَديمَةٍ ، يا سَيِّدي ، كانَ بِها شُقوقٌ . »

« هَلْ تَسْتَطيعُ أنْ تُعيدَها جَديدَةً كَما كانَتْ مَرَّةً أخْرى ، بَعْدَ جَميعِ الاسْتِخْداماتِ العَنيفَةِ الَّتي مَرَّتْ عَلَيْها ؟ »

« أعْتَقِدُ ذلِكَ ، يا سَيِّدي . »

« أظُنُّ أنَّكَ ذو مَقْدِرَةٍ فائِقَةٍ عَلى صِياغَةِ أيِّ مَعْدِنٍ في شَكْلِ حَرْبَةٍ جَديدَةٍ تَماماً . إذاً أصْغِ إلى ما أقولُ لَكَ ! » وَأخَذَ آخاب يَهُزُّ

حَقيبَتَهُ الجِلْدِيَّةَ ، الَّتي صَدَرَ عَنْها رَنينٌ أَخّاذٌ كَما لَوْ كانَتْ مَمْلوءَةً بِعُمْلاتٍ ذَهَبِيَّةٍ .

قالَ : « إِنَّني أَيْضاً أُريدُ أَنْ تَصْنَعَ لي حَرْبَةً . أُريدُ حَرْبَةً يَسْتَعْصي كَسْرُها عَلى أَلْفٍ مِنَ الشَّياطينِ ، مَهْما بَلَغَتْ قُوَّتُهُمْ ! أُريدُ حَرْبَةً تَخْتَرِقُ جَسَدَ الحوتِ عِنْدَ انْطِلاقِها ، وَتَسْتَقِرُّ في أَعْماقِهِ كَعَظْمَةٍ مِنْ عِظامِهِ .»

وَأَلْقى إيهابُ لِلصّانِعِ الحَقيبَةَ الَّتي يَحْمِلُها ، قائِلاً : « هَذِهِ مَساميرُ مِنْ تِلْكَ الَّتي تُسْتَخْدَمُ في تَثْبيتِ حَذْوَةِ الحِصانِ ، الَّذي يَشْتَرِكُ في مُبارَياتِ السِّباقِ ، وَهِيَ مِنْ أَجْوَدِ وَأَقْوى أَنْواعِ الصُّلْبِ الَّذي اسْتَخْدَمْتَهُ في عَمَلِكَ طَوالَ حَياتِكَ . فَاصْنَعْ لي مِنْها حَرْبَةً وَسَأُكافِئُكَ مُكافَأَةً كَبيرَةً تُعَوِّضُكَ عَنِ الجَهْدِ الَّذي تَبْذُلُهُ في ذَلِكَ .»

وَبَيْنَما كانَ صانِعُ المَعادِنِ وَالرُّبّانُ يَعْمَلانِ مَعاً ، مَرَّ بِجانِبِهِما فَيْضُ اللَّهِ في صَمْتٍ ، وَانْحَنى أَمامَ النّارِ تَحِيَّةً وَاحْتِراماً ، وَبَدا كَأَنَّهُ يُسَبِّحُ بِحَمْدِها بِكَلِماتٍ هامِسَةٍ ، أَوْ رُبَّما كانَ – في حَقيقَةِ الأَمْرِ – يَصُبُّ اللَّعَناتِ عَلى العَمَلِ الَّذي كانَ الرُّبّانُ وَصانِعُ المَعادِنِ يَقومانِ بِهِ . وَلَكِنَّ أَحَداً مِنْهُما لَمْ يَلْحَظْهُ .

وَعِنْدَما حانَ وَقْتُ تَبْريدِ رَأْسِ الحَرْبَةِ الجَديدَةِ بِالماءِ ، صاحَ آخاب : « لا ، لا ! لا تَبْريدَ بِالماءِ ، فَلَنْ يَرْوِيَها إِلّا الدَّمُ ؛ فَما صُنِعَتْ إِلّا لاسْتِعْمالِها في الصَّيْدِ وَالقِتالِ .» وَنَظَرَ حَوْلَهُ ، وَكانَ كويكوغ واقِفاً بِالقُرْبِ مِنَ النّارِ .

صاحَ مُنادِياً : « كويكوغ ، تاشْتيغو ، داغو ! ماذا تَقولونَ ؟»

لَبّى الصَّيّادانِ الآخَرانِ تاشْتيغو وَداغو النِّداءَ وَحَضَرا مُسْرِعَيْنِ . وَسَأَلَهُمْ آخاب : « هَلْ تُعْطونَ مِنْ دِمائِكُمْ ما يُغَطّي هَذِهِ الحَرْبَةَ لِتَبْريدِها ؟»

وافَقَ الرِّجالُ الثَّلاثَةُ وَقالوا في صَوْتٍ واحِدٍ : « نَعَمْ ! نَحْنُ عَلى أَتَمِّ اسْتِعْدادٍ .» جَمَعَ آخاب الدِّماءَ ، الَّتي تَدَفَّقَتْ مِنْ جُرْحِ ذِراعِ كُلٍّ مِنْهُمْ في إِناءٍ مِنَ الصَّفيحِ ، ثُمَّ صَبَّ أَقْسى اللَّعَناتِ عَلى هَذِهِ الحَرْبَةِ المُلْتَهِبَةِ ، وَهُوَ يَغْمِسُها في دِمائِهِمُ الحَمْراءِ الدّاكِنَةِ لِتَبْريدِها .

الفصل السابع عشر

فَيْضُ اللّهِ يَتَنَبَّأُ بِالمُسْتَقْبَل

أثْناءَ اسْتِمْرارِ رِحْلَتِنا عَبْرَ بَحْرِ اليابانِ لَمْ يُغادِرْ آخاب مَكانَهُ على سَطْحِ السَّفينَةِ إلّا نادِراً . وكانَ دائِمَ التَّحَدُّثِ مَعَ فَيْضِ اللّهِ – ذي الشَّعْرِ الأبْيَضِ قائِدِ قارِبِهِ الخاصِّ .

أمّا نَحْنُ البَحّارَةَ فَقَلَّما نَسْمَعُ ما يَدورُ بَيْنَهُما مِنْ حَديثٍ . وفي يَوْمٍ مِنَ الأيّامِ كُنْتُ أعْمَلُ على مَسافَةٍ قَريبَةٍ مِنْهُما ، فَسَمِعْتُ العَجَبَ العُجابَ .

قالَ آخاب : « انْظُرْ إلَيَّ ، يا فَيْضَ اللّهِ ! انْظُرْ نَحْوي مُباشَرَةً . إنَّكَ لا تُوَجِّهُ نَظَراتِكَ إلَيَّ ! إنَّكَ تَنْظُرُ فَوْقَ كَتِفَيَّ . إلامَ تَنْظُرُ إذاً ؟ »

« إنَّني أتَطَلَّعُ إلى المُسْتَقْبَلِ . »

« إلى المُسْتَقْبَلِ ! أخْبِرْني ماذا تَرى ! »

« أرى عَرَبَتَيْنِ لِنَقْلِ المَوْتى . وقَبْلَ أنْ يَنْتَهِيَ بِكَ الأجَلُ سَتَرى هاتَيْنِ العَرَبَتَيْنِ على سَطْحِ البَحْرِ . وسَتَراهُما خِلالَ هٰذِهِ الرِّحْلَةِ . »

« ماذا تَعْني بِهٰذا القَوْلِ ؟ وماذا تَقْصِدُ بِعَرَبَةِ المَوْتى ؟ »

« إنَّها عَرَبَةٌ تَحْمِلُ نَعْشَ المَيِّتِ إلى القَبْرِ . »

« ولٰكِنَّكَ تَرى هاتَيْنِ العَرَبَتَيْنِ على البَحْرِ ، وهُما يَسيرانِ على البَرِّ ! »

« إنَّني فِعْلاً أراهُما على البَحْرِ . فَكُلُّ شَيْءٍ يَحْمِلُ المَيِّتَ يُعْتَبَرُ عَرَبَةً لِنَقْلِهِ إلى القَبْرِ ، حَتّى ولَوْ كانَ قارِباً أوْ سَفينَةً . ولٰكِنَّ العَرَبَةَ الأولى الَّتي تَحْمِلُ نَعْشِيَ الخاصَّ بي لَنْ تَكونَ مَصْنوعَةً بِأيْدي العُمّالِ ، أمّا عَرَبَةُ المَوْتى الأُخْرى فَسَتَكونُ عَرَبَةً خَشَبِيَّةً مَصْنوعَةً مِنْ أخْشابِ أمْريكا . »

« ماذا تَرى أيْضاً غَيْرَ ذٰلِكَ ؟ »

« أرى بَعْضَ التَّوابيتِ في البَحْرِ تَحْمِلُ مَوْتى مِنَ الرِّجالِ ، إلّا تابوتاً واحِداً يَحْمِلُ رَجُلاً لا يَزالُ على قَيْدِ الحَياةِ . »

« ماذا عَنْكَ أنْتَ ؟ »

رَدَّ فَيْضُ اللّهِ : « سَأموتُ قَبْلَكَ ، ولٰكِنَّني سَأظَلُّ أقودُ قارِبَكَ .

وَسَوْف تراني مَرّةً أخرى قَبْلَ أنْ تُوافِيكَ المَنِيَّةُ .»

« زِدْني عِلْماً ، وَأخْبِرْني ماذا ترى غَيْرَ ذَلِكَ ؟»

« أرى حَبْلاً طَويلاً .»

« هَلْ تَعْني أنّني سَأموتُ شَنْقًا ؟ وَما مَعْنى هَذا الحَبْلِ ؟»

« لا أعْرِفُ ماذا يَعْني الحَبْلُ ، وَلَكِنْ قَدْ يَكونُ لَهُ مَعْنًى خاصٌ بِالنِّسْبَةِ لَكَ . فَإنَّ الحَبْلَ فَقَطْ قَدْ يَكونُ سَبَبَ مَوْتِكَ .»

« أخْبِرْني شَيْئًا واحِداً أيْضاً . هَلْ تَسْتَطيعُ أنْ تَرى مُوبي دِك ؟»

« نَعَمْ ، أسْتَطيعُ أنْ أراهُ .»

« وَلَكِنْ أيْنَ هُوَ ؟ قَريبٌ أمْ بَعيدٌ ؟»

« لَيْسَ في مَقْدِرَتي أنْ أقولَ شَيْئًا مُحَدَّدًا في هَذا الصَّدَدِ . وَلَكِنّي أسْتَطيعُ أنْ أخْبِرَكَ بِأنّني سَأراهُ قَبْلَ أنْ تَراهُ أنْتَ أوْ قَبْلَ أنْ يَراهُ أيُّ فَرْدٍ مِنْ رِجالِكَ .»

« مِنَ الآنَ فَصاعِداً ؛ عَلَيْكَ أنْ تَمْكُثَ بِجانِبي عَلى سَطْحِ السَّفينَةِ وَتُخْبِرَني بِمُجَرَّدِ أنْ تُشاهِدَ مُوبي دِك ، وَعَلى أيِّ مَدًى يَكون ، قَريبٌ أمْ بَعيدٌ .»

« سَمْعًا وَطاعَةً ، يا سَيِّدي .»

الفصل الثامن عشر

العاصِفَة

في ذَلِكَ الوَقْتِ ، ما كُنْتُ عَلى يَقينٍ قَطُّ مِنْ قُدْرَةِ فَيْضِ اللّهِ عَلى التَّنَبُّؤِ بِالمُسْتَقْبَلِ إلى هَذا الحَدِّ . رُبَّما ألْقَتْ تَنَبُّؤاتُهُ الرُّعْبَ في نَفْسِ آخاب ، مَعَ أنَّهُ عَلى ما يَبْدو لَمْ يَسْبِقْ لأيِّ شَيْءٍ آخَرَ أنْ بَعَثَ الخَوْفَ في قَلْبِهِ . وَلَكِنَّ التَّعَبَ بَدَأ يَظْهَرُ عَلى مَلامِحِ الرُّبّانِ . رُبَّما بِسَبَبِ الحَرارَةِ الشَّديدَةِ الّتي ضايَقَتْهُ ، فَقَدْ سادَ بَحْرَ اليابانِ أسْوَأ طَقْسٍ تَعَرَّضْنا لَهُ في رِحْلَتِنا . وَيَبْدو أنَّ مُحاوَلَةَ اصْطِيادِ مُوبي دِك ، الّتي لا نِهايَةَ لَها ، كانَتِ السَّبَبَ الحَقيقِيَّ الّذي جَعَلَ مَشاعِرَ الغَضَبِ تَسْتَوْلي عَلَيْهِ ، لِدَرَجَةِ أنّنا نَحْنُ البَحّارَةَ حَرَصْنا عَلى أنْ نَبْتَعِدَ عَنْهُ . وَفي بَعْضِ الأحْيانِ كُنّا نَشْعُرُ بِأنّنا عَلى يَقينٍ مِنْ أنَّهُ قَدْ أصيبَ بِالجُنونِ .

وَذاتَ صَباحٍ كانَ آخاب يَسْتَعْمِلُ المِزْوَلَةَ ، وَهِيَ آلَةٌ لِقِياسِ الزَّوايا ، تُحَدِّدُ لِلْبَحّارَةِ مَوْقِعَ سَفينَتِهِمْ وَسْطَ المُحيطِ العَريضِ

الشَّاسِعِ . وَلَكِنَّ اسْتِعْمالَها لا يَكونُ إلّا في وَقْتٍ تَتَوَسَّطُ فيهِ الشَّمْسُ كَبِدَ السَّماءِ .

تَطَلَّعَ آخاب إلى الشَّمْسِ مُناجِيًا : « أَيَّتُها الشَّمْسُ ! أَنْتِ الوَحيدَةُ الَّتي تَسْتَطيعينَ إرْشادي وَإخْطاري بِالحَقيقَةِ ، بِما لَكِ مِنْ قُوَّةٍ خارِقَةٍ ، وَبِما لَكِ مِنْ مَوْقِعٍ عالٍ شاهِقٍ . إنَّكِ تَسْتَطيعينَ أنْ تُخْبِريني بِالمَكانِ الَّذي تُبْحِرُ فيهِ سَفينَتي الآنَ . وَلَكِنْ هَلْ يُمْكِنُكِ أنْ تُخْبِريني أيْنَ سَأكونُ غَدًا ؟ هَلْ يُمْكِنُكِ أنْ تُخْبِريني أيْنَ عَدُوّي الآنَ ؟ أيْنَ مُوبي دِك ؟ إنَّكِ تَسْتَطيعينَ رُؤْيَتَهُ ، وَلا بُدَّ أنَّكِ تَنْظُرينَ إلَيْهِ الآنَ ، وَلَكِنَّكِ لَنْ تُخْبِريني عَنْ مَكانِهِ . عَلَيْكِ اللَّعْنَةُ إذًا ، وَعَلى هَذِهِ المِزْوَلَةِ أيْضًا . ما فائِدَتُها ؟ »

بَدَتْ عَلى آخاب عَلاماتُ الغَضَبِ وَالضَّجَرِ . وَرَمى المِزْوَلَةَ عَلى سَطْحِ السَّفينَةِ صائِحًا : « لَنْ أَسْتَعْمِلَها مَرَّةً أُخْرى . إنَّها لا تُخْبِرُني بِما أَوَدُّ مَعْرِفَتَهُ . سَأَسْتَعْمِلُ البوصَلَةَ فَقَطْ لِتُبَيِّنَ لِيَ الاتِّجاهَ شَمالاً أوْ جَنوبًا ، شَرْقًا أوْ غَرْبًا . وَأَكْتَفي بِوَضْعِ مِقْياسِ السُّرْعَةِ في الماءِ ، مَرْبوطًا بِحَبْلٍ خَلْفَ السَّفينَةِ ؛ لِيَقيسَ سُرْعَتَها وَالمَسافَةَ الَّتي قَطَعْناها . »

وَفي سَوْرَةِ الغَضَبِ الَّتي انْتابَتْهُ ، وَضَعَ قَدَمَهُ السَّليمَةَ عَلى المِزْوَلَةِ وَضَغَطَ عَلَيْها بِكُلِّ قُوَّتِهِ حَتّى دَمَّرَها تَمامًا .

اسْتَدارَ فَيْضُ اللَّهِ ، الَّذي كانَ واقِفًا بِجِوارِ الرُّبّانِ ، يُراقِبُ تَصَرُّفاتِهِ ، وَأَطْلَقَ بَصَرَهُ نَحْوَ الأُفُقِ عَبْرَ البَحْرِ المُتَرامي الأَطْرافِ .

وَفي مَساءِ ذَلِكَ اليَوْمِ ، هَبَّتْ عاصِفَةٌ مُفاجِئَةٌ مِنْ جِهَةِ الشَّرْقِ ، وَأَبْحَرَتِ السَّفينَةُ بِيكُوْد وَسَطَها مُتَّجِهَةً نَحْوَ الشَّرْقِ أَيْضًا . وَبَلَغَتْ شِدَّةُ الرِّياحِ أَقْصاها ، لِدَرَجَةِ أَنَّها نَزَعَتِ الأَشْرِعَةَ مِنْ صَوارِيها . وَطَغَتْ مَوْجَةٌ هائِلَةٌ مِنْ مِياهِ البَحْرِ عَلى سَطْحِ السَّفينَةِ ، وَكَسَرَتْ قارِبَ الرُّبّانِ عِنْدَ مُؤَخِّرَةِ السَّفينَةِ ، وَأَحالَتْهُ إلى قِطَعٍ مُتَناثِرَةٍ .

انْفَجَرَ ستارْبَك مِنْ شِدَّةِ اسْتِيائِهِ قائِلاً : « إنَّني لا أُوافِقُ عَلى ما يَحْدُثُ . العاصِفَةُ آتِيَةٌ مِنْ جِهَةِ الشَّرْقِ ، وَرَغْمَ ذَلِكَ اخْتارَ آخاب هَذا الاتِّجاهَ لِلإبْحارِ فيهِ . انْظُروا إلى قارِبِهِ ! لَقَدْ تَحَطَّمَ إلى قِطَعٍ عِنْدَ مُؤَخِّرَةِ السَّفينَةِ ، في المَوْضِعِ الَّذي اعْتادَ الوُقوفَ فيهِ . »

وَفَجْأَةً صاحَ ستارْبَك : « انْظُروا ! انْظُروا إلى قِمَّةِ الصّاري هُناكَ ! اشْتَعَلَتِ النّارُ فيهِ وَسَرَتْ عَلى طولِ الحِبالِ تُحْرِقُها وَتَلْتَهِمُها ! أَصْبَحْنا مُحاصَرينَ بَيْنَ رِياحٍ وَأَمْواجٍ عاتِيَةٍ تَهُبُّ عَلَيْنا ، وَنيرانٍ غَريبَةِ الشَّكْلِ تَنْدَلِعُ مِنْ فَوْقِنا ! »

صاحَ ستارْبَك ضارِعًا : « اللَّهُمَّ ارْحَمْنا جَميعًا وَالْطُفْ بِنا ! »

وَفي وَسْطِ هَذا الجَوِّ المُضْطَرِبِ ، الَّذي يُوحي بِالهَلاكِ وَالخَطَرِ ،

سَمعَ كُلُّ واحدٍ منّا صَوْتَ الرُّبّانِ ، الّذي انْتابَتْهُ حالَةٌ مِنَ الجُنونِ والهَذَيانِ : « نَعَمْ أيُّها الرِّجالُ ! انْظُروا إلى النّارِ البَيْضاءِ المُشْتَعِلَةِ عالِياً ! إنَّها تُرْشِدُنا إلى الطَّريقِ المُؤدّي إلى الحوتِ الأبْيَضِ ! إنّني سَوْفَ أتْبَعُكِ أيَّتُها النّارُ ! سَأتْبَعُكِ أيْنَما تَذْهَبي وَسَأقْتَفي أثَرَكِ ! »

لَمْ يَتَمالَكْ ستارْبَك نَفْسَهُ فَصاحَ مُخاطِباً الرُّبّانَ : « القارِبَ ! انْظُرْ إلى قارِبِكَ ! أيُّها الرَّجُلُ ! »

وَكانَتِ الحَرْبَةُ الّتي صَنَعَها الرُّبّانُ مِنْ مَساميرِ حَذْوَةِ الحِصانِ لا تَزالُ مَوْضوعَةً في قارِبِهِ ، وَفي نِهايَةِ نَصْلِها الحادِّ تَشْتَعِلُ نارٌ أخْرى لا لَوْنَ لَها .

وَأمْسَكَ ستارْبَك بِذِراعِ آخاب بِقَبْضَةٍ صارِمَةٍ ، صائِحاً في وَجْهِهِ : « كَفى أيُّها الرَّجُلُ ! إنَّ اللّهَ لا يَرْضى عَمّا تَفْعَلُ . دَعْنا نُغَيِّرِ اتِّجاهَ السَّفينَةِ وَنُبْحِرْ عائِدينَ إلى وَطَنِنا . لَمْ نَرَ خَيْراً طَوالَ هَذِهِ الرِّحْلَةِ . إنَّها شَرٌّ كُلُّها ، يا سَيِّدي . أرْجوكَ ! دَعْنا نَعُدْ إلى وَطَنِنا الآنَ . »

كانَ لِهَذا المَوْقِفِ صَدًى عَميقٌ في نُفوسِ جَميعِ البَحّارَةِ ، الّذينَ وافَقوا ستارْبَك عَلى ما أعْرَبَ عَمّا في نُفوسِهِمْ . وَأسْرَعوا يُحْضِرونَ أشْرِعَةً جَديدَةً دونَ انْتِظارِ أيَّةِ أوامِرَ مِنَ الرُّبّانِ . وَبَدأ البَحّارُ الواقِفُ

عَلى عَجَلَةِ القِيادَةِ يُديرُ اتِّجاهَ السَّفينَةِ . وَلَكِنَّ آخاب سَرْعانَ ما الْتَقَطَ حَرْبَتَهُ بِنارِها المُتَأجِّجَةِ فيها ، وَصاحَ في البَحّارَةِ قائِلاً : « إنَّكُمْ أقْسَمْتُمْ عَلى صَيْدِ الحوتِ الأبْيَضِ ، وَقَطَعْتُمْ عَلى أنْفُسِكُمْ عَهْداً وَ وَعْداً بِذَلِكَ . وَسَنَسْتَمِرُّ في إبْحارِنا حَتّى نَظْفَرَ بِهِ . لَنْ أهْرُبَ . لَنْ أخْشى شَيْئاً . انْظُروا إلَيَّ . سَأخَلِّصُكُمْ مِنْ مَخاوِفِكُمْ . »

وَ وَقَفَ مُمْسِكاً حَرْبَتَهُ ، وَبِنَفْخَةٍ واحِدَةٍ أطْفَأ النّارَ الّتي كانَتْ مُشْتَعِلَةً في طَرَفِها .

وَهَكَذا اسْتَمَرَّتْ رِحْلَتُنا إلى الشَّرْقِ ، وَأعْطى الرُّبّانُ أوامِرَهُ بِإصْلاحِ قارِبِهِ الّذي حَطَّمَتْهُ لَطَماتُ الأمْواجِ .

الفصل التاسع عشر

البُوصَلَة

في صَباحِ اليَوْمِ التَّالي ، كانَ البَحْرُ لا يَزالُ مُضْطَرِباً هائِجاً . وَأبحرَتِ السَّفينَةُ تَتَلاطَمُها الأمْواجُ في مَهَبِّ الرِّياحِ العاصِفَةِ . وَ وَقفَ آخاب في مَكانِهِ الَّذي اعْتادَ الوُقوفَ فيهِ عَلى سَطْحِ السَّفينَةِ . وَكانَ يَبْدو عَلَيْهِ الهُدوءُ وَالسَّكينَةُ وَرُبَّما السَّعادَةُ أيْضاً .

وَبَيْنَما تَشُقُّ السَّفينَةُ بيكُوْد عُبابَ البَحْرِ بِسُرْعَةٍ ، تَدْفَعُها الرِّياحُ إلى الأمامِ ، تَحَوَّلَتِ السَّعادَةُ إلى غَضَبٍ مُفاجِئٍ . هُناكَ خَطَأٌ ما ، هُناكَ شَيْءٌ ما لا يَسيرُ عَلى ما يُرامُ . وَأخَذَ يَتَفَحَّصُ ما حَوْلَهُ على سَطْحِ السَّفينَةِ ، حَيْثُ خَطَرَتْ بِبالِهِ فِكْرَةٌ رَهيبَةٌ ، دَفَعَتْهُ إلى الإسْراعِ نَحْوَ الرَّجُلِ الواقِفِ عَلى عَجَلَةِ القِيادَةِ ، وَسَألَهُ :

« في أيِّ اتِّجاهٍ نُبْحِرُ الآنَ ؟»

أجابَ البَحّارُ : « في اتِّجاهِ الشَّرْقِ ، يا سَيِّدي .»

« هَذا لَيْسَ صَحيحاً ! أنْتَ تَكْذِبُ عَلَيَّ ! كَيْفَ يَكونُ اتِّجاهُنا إلى الشَّرْقِ ، وَلا يَزالُ الوَقْتُ مُبكِّراً وَالشَّمْسُ خَلْفَنا ؟ نَحْنُ إذاً نُبْحِرُ نَحْوَ الغَرْبِ .»

هَذِهِ حَقيقَةٌ واقِعَةٌ اكْتَشَفَها آخاب وَحْدَهُ ، الأمْرُ الَّذي حَدا بِهِ وَستارْبك إلى النَّظَرِ مَعاً إلى بُوصْلَةِ السَّفينَةِ ، حَيْثُ وَجَداها بِكُلِّ وُضوحٍ تُشيرُ نَحْوَ الشَّرْقِ فِعْلاً .

تَساءَلَ ستارْبك : « كَيْفَ إذاً يُمْكِنُ أنْ نَكونَ مُتَّجِهينَ نَحْوَ الغَرْبِ ؟»

سادَ الصَّمْتُ بَيْنَهُما ، وَبَدا الوُجومُ عَلَيْهِما ، حَتّى صاحَ آخاب قائِلاً :

« إنَّني أعْرِفُ سَبَبَ ذَلِكَ بِالطَّبْعِ ، فَقَدْ حَدَثَ ذَلِكَ مِنْ قَبْلُ ، يا سَيِّدُ ستارْبك . إنَّ العاصِفَةَ الكَهْرَبائِيَّةَ الَّتي هَبَّتْ عَلَيْنا اللَّيْلَةَ الماضِيَةَ قَدْ أفْسَدَتِ البُوصَلَةَ ، وَأوْقَفَتْها عَنِ العَمَلِ كَما يَجِبُ . هَذا بِالضَّبْطِ ما حَدَثَ ؛ فَهَلْ سَمِعْتَ عَنْ مِثْلِ هَذا الأمْرِ ؟»

أجابَ ستارْبَك وَقَدْ بَدا وَجْهُهُ شاحِباً : « نَعم ، ولَكِنَّ ذَلِكَ لَمْ يَحْدُثْ لي قَطُّ . »

وَفي الحالِ أصْدَرَ آخاب أوامِرَهُ بِتَحْويلِ اتِّجاهِ السَّفينَةِ ، الَّتي عادَتْ مَرَّةً أُخْرى تَشُقُّ طَريقَها بِصُعوبَةٍ عَكْسَ اتِّجاه الرِّياحِ العاصِفَةِ .

اسْتَطْرَدَ آخاب قائِلاً : « حَتَّى البُوصلَةُ تُحاوِلُ إرْغامي عَلى تَغْييرِ ما عَزَمْتُ عَلَيْهِ ! وَلَكِنَّني سَيِّدُ البُوصلَةِ أيْضاً ! وَعَلَيْها ألا تَعْصِيَ لي أمْرًا . سَيِّدُ ستارْبَك ، أحْضِرْ لي حَرْبَةً وَإبْرَةً وَمِطْرَقَةً . »

وَعِنْدَما أحْضَرَ ستارْبَك هَذِهِ الأشْياءَ ، قالَ آخاب :

« إنَّ العاصِفَةَ غَيَّرَتِ اتِّجاهَ إبْرَةِ البُوصلَةِ ، وَلَكِنَّني سَأصْنَعُ بُوصلَةً جَديدَةً بِهَذِهِ القِطْعَةِ مِنَ الصُّلْبِ ، وَسَتَعْمَلُ في كَفاءَةٍ تُضارِعُ أحْسَنَ بُوصلَةٍ صُنِعَتْ مِنْ قَبْلُ ، وَتُشيرُ إلى الاتِّجاهِ الصَّحيحِ . »

وَنادى الرُّبَّانُ البَحَّارَةَ كُلَّهُمْ ، وَتَجَمَّعوا عِنْدَ مُؤَخِّرَةِ السَّفينَةِ ، حَيْثُ أخَذَ يَتَحَدَّثُ إلَيْهِمْ حَديثاً مُسْتَفيضاً ، مُلَوِّحاً بِذِراعَيْهِ حَتَّى يُثيرَ

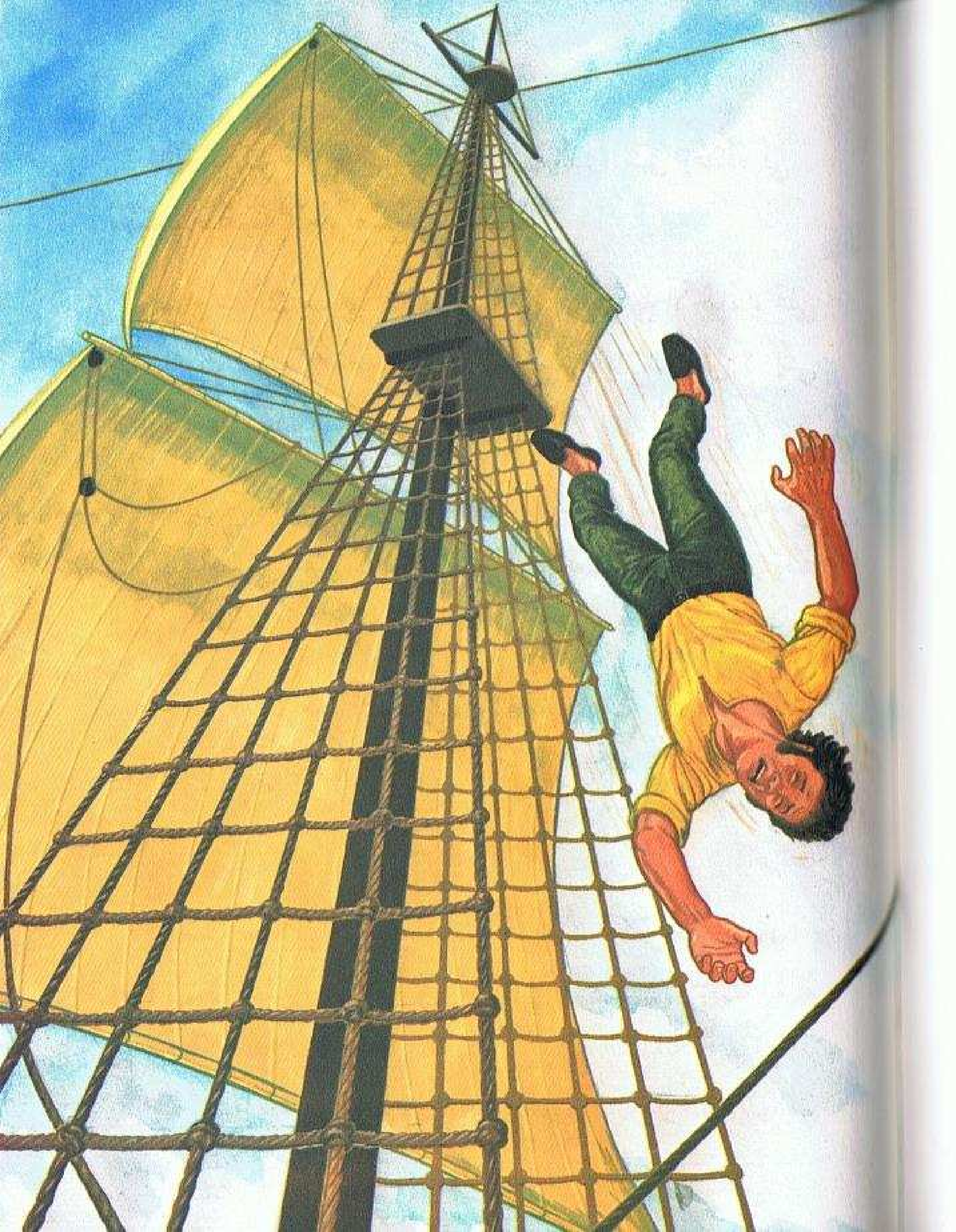
إعْجابَهُمْ بِمَهارَتِهِ ، وَيَبْهَرَهُمْ بِصِناعَتِهِ لِبُوصلَةٍ جَديدَةٍ ، مِنَ الحَرْبَةِ وَالإبْرَةِ .

وَصاحَ فيهِمْ : « انْظُروا بِأنْفُسِكُمْ . أنا سَيِّدُ هَذِهِ البُوصلَةِ . انْظُروا ! ها هِيَ الشَّمْسُ تَسْطَعُ في الشَّرْقِ ، وَهَذِهِ الإبْرَةُ تُشيرُ إلى جِهَةِ الشَّرْقِ أيْضاً ، وَكَأنَّها تُقْسِمُ لَكُمْ أنَّ هَذِهِ البُوصلَةَ الَّتي صَنَعْتُها بِنَفْسي تَعْمَلُ عَلى خَيْرِ وَجْهٍ وَبِكُلِّ دِقَّةٍ . »

شَعَرَ كُلُّ فَرْدٍ عَلى السَّفينَةِ بِالخَجَلِ إزاءَ ما أظْهَرَهُ آخاب مِنْ كِبْرِياءَ وَغُرورٍ يُودِيانِ بِصاحِبِهِما وَبِمَنْ حَوْلَهُ إلى التَّهْلُكَةِ . وَهَمَسَ ستارْبَك بِدُعاءٍ حارٍّ إلى اللَّهِ حَتَّى يُظَلِّلَهُمْ جَميعاً بِرَحْمَتِهِ . وَبَدا أنَّ السَّفينَةَ بيكْوُد في حاجَةٍ ماسَّةٍ إلى فَيْضٍ مِنْ رِعايَةِ اللَّهِ لِيُنْقِذَها بِمَنْ فيها مِنْ تَصَرُّفاتِ رُبَّانِها الطَّائِشَةِ .

وَفي آخِرِ ذَلِكَ اليَوْمِ اكْتَشَفَ البَحَّارَةُ أنَّ السَّفينَةَ قَدْ فَقَدَتْ مِقْياسَ السُّرْعَةِ ، وَهُوَ الآلَةُ الَّتي وَضَعَها آخاب في الماءِ ، وَرَبَطَها بِحَبْلٍ خَلْفَ السَّفينَةِ ، وَيَبْدو أنَّ الحَبْلَ انْقَطَعَ وَغاصَ المِقْياسُ في الماءِ .

وَفي ساعَةٍ مُبَكِّرَةٍ مِنْ صَباحِ اليَوْمِ التَّالي ، سَمِعَ البَحَّارَةُ صَيْحَةً



مُخيفَةً ، وَعِنْدَما حانَتْ مِنْهُمُ التِفاتَةٌ إلى أعْلى شاهَدوا رَجُلاً يَهْوي مِنْ قِمَّةِ الصّاري ، وَعِنْدَما نَظَروا إلى أسْفَلَ لَمْ يَرَوْا إلّا بَعْضَ الأمْواجِ البَيْضاءِ الصَّغيرَةِ ، وَلَمْ يَسْتَطيعوا مُشاهَدَةَ الرَّجُلِ بَعْدَ ذَلِكَ مُطْلَقًا .

صاحَ ستارْبَك : « اقْذِفوا طَوْقَ النَّجاةِ ! »

لَمْ يَكُنْ طَوْقُ النَّجاةِ في السَّفينَةِ بِيكوُد على شَكْلِ حَلْقَةٍ مُسْتَديرَةٍ كَما هُوَ اليَوْمَ ، بَلْ كانَ بِرْميلاً طَويلاً مَرْبوطًا في خُطّافٍ بِمُؤَخِّرَةِ السَّفينَةِ ، وَيُمْكِنُ إطْلاقُهُ في الماءِ بِسُهولَةٍ وَقْتَ الحاجَةِ ، وَلَكِنَّ أحَدًا لَمْ يَسْتَعْمِلْهُ مُنْذُ عِدَّةِ سَنَواتٍ .

وَلِسوءِ الحَظِّ امْتَلأَ بِرْميلُ النَّجاةِ بِالماءِ وَغاصَ في أعْماقِ البَحْرِ . أمّا البَحّارُ الغَريقُ فَكانَ يابانِيَّ الجِنْسِيَّةِ ، وَكانَ يَقومُ بِنَوْبَةِ المُراقَبَةِ وَالاسْتِطْلاعِ عِنْدَ قِمَّةِ الصّاري ، وَعِنْدَما سَقَطَ مِنْ هَذا العُلُوِّ الشّاهِقِ ابْتَلَعَهُ البَحْرُ وَغابَ عَنّا إلى الأبَدِ .

تَرَتَّبَ عَلى ذَلِكَ أنْ أصْدَرَ آخاب تَعْليماتِهِ إلى ستارْبَك بِإعْدادِ بِرْميلِ نَجاةٍ آخَرَ جَديدٍ ، وَلَكِنْ لَمْ يَكُنْ لَدَيْنا بِرْميلٌ خَفيفُ الوَزْنِ يَسْتَطيعُ أنْ يَمْكُثَ طافِيًا فَوْقَ سَطْحِ الماءِ .

قالَ كويكْوِغ : « اسْتَعْمِلوا التّابوتَ الّذي سَبَقَ إعْدادُهُ لي سَيَكونُ صُنْدوقاً لِلنَّجاةِ يَصْلُحُ لِهَذِهِ المُهِمَّةِ .»

صاحَ ستارْبَك ساخِراً : « طَوْقٌ لِلنَّجاةِ يَتَشَبَّثُ بِهِ الأحْياءُ ، عَلى هَيْئَةِ تابوتٍ توضَعُ فيهِ المَوْتى ! كَيْفَ يَكونُ هَذا التَّناقُضُ ؟ إنَّني لا أوافِقُ عَلى هَذِهِ الفِكْرَةِ مُطْلَقاً .»

تَساءَلَ كويكْوِغ : « لِماذا لا يَكونُ ذَلِكَ ؟ إنَّ الأمْرَ لا يَحْتاجُ إلّا إلى إحْكامِ غَلْقِ التّابوتِ ، وَتَثْبيتِ غِطائِهِ بِالمَساميرِ ، وَسَدِّ الشُّقوقِ ، ثُمَّ طِلائِهِ كُلِّهِ .»

وَعِنْدَما تَمَّتْ هَذِهِ التَّجْهيزاتُ ، أصْبَحَ تابوتُ كويكْوِغ بِمَثابَةِ طَوْقِ نَجاةٍ جَديدٍ لَنا .

الفصل العشرون

الرُّبّانُ غارْدنر يَفْقِدُ ابْنَهُ

وَصَلْنا إلى مَكانٍ مِنَ المُحيطِ كانَ آخاب يَنْشُدُ الوُصولَ إلَيْهِ . هُنا في هَذا البَحْرِ الشَّرْقِيِّ رَأى مُوبي دِك لأَوَّلِ مَرَّةٍ ، وَمُنْذُ ذَلِكَ الحينِ سَيْطَرَتْ عَلَيْهِ فِكْرَةُ قَتْلِ هَذا الحوتِ المارِدِ ، وَمَلَكَتْ عَلَيْهِ كُلَّ حَواسِّهِ وَتَفْكيرِهِ .

لَمْ يَعُدْ آخاب يَثِقُ بِنا نَحْنُ البَحّارَةَ ثِقَةً تامَّةً ، كَما كانَ مِنْ قَبْلُ ، فَكانَ كُلَّ يَوْمٍ يُراقِبُ بِنَفْسِهِ ظُهورَ الحوتِ ، وَفَيْضُ اللَّهِ دائِماً بِجانِبِهِ .

وَذاتَ يَوْمٍ كانَ الرُّبّانُ واقِفاً كَالمُعْتادِ عَلى سَطْحِ السَّفينَةِ ، مُتَرَقِّباً ظُهورَ مُوبي دِك ، وَلَكِنَّهُ لَمْ يَرَهُ ، بَلْ رَأى سَفينَةً كَبيرَةً تَتَّجِهُ بِسُرْعَةٍ نَحْوَ سَفينَتِنا بيكْوُد . وَلاحَظَ آخاب أنَّ عَدَداً كَبيراً مِنْ رِجالِها كانوا يَقومونَ بِمُهِمَّةِ المُراقَبَةِ وَالاسْتِطْلاعِ عِنْدَ قِمَمِ صَواري

السَّفِينَةِ ، الأَمْرُ الَّذي يَعْني أَنَّهُمْ كانوا يَبْحَثونَ عَنْ شَيْءٍ هامٍّ بِكُلِّ جِدٍّ وَاهْتِمامٍ .

وَعِنْدَما اقْتَرَبَتْ هَذِهِ السَّفِينَةُ اسْتَطاعَ آخاب أَنْ يَقْرَأَ اسْمَها « راشيل » وَبَدَأَ رُبّانُها يَصيحُ لِسَفينَتِنا بِيكُود بِالتَّحِيَّةِ البَحْرِيَّةِ المُتَعارَفِ عَلَيْها .

وَلَكِنَّ آخاب رَدَّ عَلَيْهِ بِأَعْلَى ما لَدَيْهِ مِنْ صَوْتٍ ، مُتَسائِلاً : « هَلْ رَأَيْتُمُ الحوتَ الأَبْيَضَ ؟ »

« نَعَمْ ، رَأَيْناهُ أَمْسِ . هَلْ رَأَيْتُمْ أَنْتُمْ قارِبَ صَيْدٍ مَفْقوداً ؟ »

لَمْ تَكَدْ تَمْضي بِضْعُ دَقائِقَ حَتَّى كانَ رُبّانُ السَّفينَةِ راشيل يُجَدِّفُ بِأَحَدِ القَوارِبِ مُتَوَجِّهاً إِلى سَفينَتِنا . وَعِنْدَ التَّلاقي تَبَيَّنَ أَنَّهُ مِنْ جَزيرَةِ نانْتوكِت وَيُدْعى غارْدنر ، وَيَعْرِفُهُ آخاب حَقَّ المَعْرِفَةِ ، وَرَغْمَ ذَلِكَ لَمْ يُحْسِنِ اسْتِقْبالَهُ ، بَلْ عَلى العَكْسِ تَصَرَّفَ مَعَهُ بِطَريقَةٍ غَيْرِ لائِقَةٍ ، فَلَمْ يَهْتَمَّ حَتَّى بِتَحِيَّتِهِ ، وَفاجَأَهُ مُتَسائِلاً في الحالِ : « أَيْنَ هُوَ ؟ هَلْ تَمَكَّنَ أَحَدٌ مِنْ قَتْلِهِ ؟ لِماذا لَمْ تَسْتَطيعوا القَضاءَ عَلَيْهِ ؟ أَيْنَ هُوَ الآنَ ؟ »

أَخَذَ الرُّبّانُ غارْدنر يَحْكي قِصَّتَهُ :

« انْطَلَقَتْ أَمْسِ ثَلاثَةُ قَوارِبَ مِنْ قَوارِبِنا لاصْطِيادِ الحيتانِ في

مِنْطَقَةٍ بَعيدَةٍ نَوْعاً ما عَنْ سَفينَتِنا راشيل . وَفَجْأَةً رَأَيْتُ رَأْسَ مُوبي دِك الأَبْيَضَ بِالقُرْبِ مِنّا تَماماً ، فَأَرْسَلْتُ عَلى الفَوْرِ قارِباً آخَرَ لِصَيْدِهِ . وَأَخَذْنا نُراقِبُ هَذِهِ المُحاوَلَةَ في اهْتِمامٍ بالِغٍ . وَسُرْعانَ ما أَطْلَقَ الرِّجالُ حِرابَهُمْ عَلَيْهِ . وَفي لَمْحِ البَصَرِ اخْتَفَى الحوتُ الأَبْيَضُ وَالقارِبُ مَعاً مِنْ عَلى سَطْحِ البَحْرِ ، وَلَمْ يَظْهَرْ لَهُما أَثَرٌ حَتَّى الآنَ . اعْتَقَدْنا أَنَّ الحوتَ قَدْ سَحَبَ القارِبَ إِلى أَعْماقِ البَحْرِ حينَ غاصَ تَحْتَ سَطْحِ الماءِ ، وَظَلِلْنا نُتابِعُ المَوْقِفَ وَنُراقِبُ الأَحْداثَ ، حَتَّى سادَ الظَّلامُ وَعادَتْ جَميعُ القَوارِبِ الأُخْرى إِلى السَّفينَةِ راشيل ، وَلَمْ نَتَوَقَّفْ عَنِ البَحْثِ عَنِ القارِبِ المَفْقودِ طَوالَ اللَّيْلِ . »

تَساءَلَ آخاب : « هَلْ وَجَدْتَهُ ؟ »

« لا . وَإِنَّني أَرْجوكَ الآنَ أَنْ تُساعِدَنا في البَحْثِ عَنْهُ ، خاصَّةً وَأَنَّ وَلَدي كانَ مَعَ الصَّيّادينَ في ذَلِكَ القارِبِ . أَسْتَحْلِفُكَ بِاللهِ أَنْ تُعاوِنَنا بِأَقْصى ما لَدَيْكَ مِنْ عَزْمٍ في مَسْحِ هَذِهِ المِنْطَقَةِ مِنَ البَحْرِ ؛ بَحْثاً عَنِ القارِبِ . »

هَزَّ آخاب رَأْسَهُ مُبْدِياً عَدَمَ اسْتِعْدادِهِ لِلاسْتِجابَةِ إِلى تَوَسُّلاتِ غارْدنر .

« إِذا كانَ الأَمْرُ كَذَلِكَ ، فَاسْمَحْ لي بِتَأْجيرِ السَّفينَةِ بِيكُود

لِمُدَّةِ ثَمانٍ وَأَرْبَعينَ ساعَةً . وَأَعِدُكَ أَنْ أَدْفَعَ لَكَ أَيَّ مَبْلَغٍ مِنَ المالِ تَطْلُبُهُ مِنّي . اسْمَحْ لي بِهَذِهِ المُدَّةِ القَصيرَةِ فَقَطْ ، وَيَجِبُ أَلا تَرْفُضَ طَلَبي . وَإِنَّني عَلى يَقينٍ مِنْ أَنَّكَ سَتَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْ أَجْلي .»

وَلَكِنَّ آخاب وَقَفَ صامِتاً كَأَنَّهُ لَمْ يَسْمَعْ شَيْئاً .

« لَنْ أُغادِرَ هَذا المَكانَ حَتّى تُوافِقَ عَلى طَلَبي . فَكِّرْ قَليلاً ؛ ماذا لَوْ كانَ ابْنُكَ أَنْتَ في هَذا القارِبِ المَفْقودِ ؟ أَ مُوافِقٌ أَنْتَ ؟»

حينَئِذٍ صاحَ الرُّبّانُ غارْدنر مُنادِياً بَحّارَةَ السَّفينَةِ بيكْوُد : « هَلُمّوا إِلَيَّ ، يارِجالُ ! حَوِّلوا دَفَّةَ السَّفينَةِ .»

عِنْدَ ذَلِكَ خَرَجَ آخاب عَنْ صَمْتِهِ صائِحاً في انْفِعالٍ : « كُفّوا عَنْ هَذا العَبَثِ ! لا تَلْمِسوا حَبْلاً واحِداً ! غارْدنر ! إِنَّني لَنْ أُوافِقَ عَلى ذَلِكَ ! كُلُّ هَذا التَّعْطيلِ يُؤَدّي إِلى ضَياعِ الوَقْتِ سُدًى ! كانَ اللّهُ في عَوْنِكَ . وَلَعَلّي أَسْتَطيعُ أَنْ أَعْفُوَ عَنْ نَفْسي أَوْ أَصْفَحَ عَنْها لِتَصَرُّفي مَعَكَ عَلى هَذا النَّحْوِ .»

ثُمَّ اسْتَدارَ آخاب مُبْتَعِداً عَنْ غارْدنر قائِلاً : « سَيِّدُ ستارْبك ! اصْرِفْ كُلَّ الغُرَباءِ عَنْ سَفينَتي في ظَرْفِ ثَلاثِ دَقائِقَ . سَنُبْحِرُ في طَريقِنا كَما كُنّا مِنْ قَبْلُ .»

انْطَلَقَتْ بيكْوُد في خَطِّ سَيْرِها عَلى حينِ كانَ بَحّارَتُهُ يُشاهِدونَ

السَّفينَةَ راشيل ، وَهِيَ تَتَحَرَّكُ إِلى الخَلْفِ تارَةً وَتُبْحِرُ إِلى الأَمامِ تارَةً ، وَجَميعُ رِجالِها يَقِفونَ عَلى سَطْحِها يَبْحَثونَ عَنْ قارِبِهِمُ المَفْقودِ . وَلَيْسَ هُناكَ إِلا بَصيصٌ مِنَ الأَمَلِ ، أَوْ لا أَمَلَ عَلى الإِطْلاقِ في أَنْ يَعْثُروا عَلَيْهِ .

الفصل الحادي والعشرون

ظُهور مُوبي دِك

ابْتَهَجَ آخاب بِالأَخْبارِ الَّتي سَمِعَها عَنِ الحوتِ الأَبْيَضِ مِنْ رُبَّانِ السَّفينَةِ راشيل ، الَّذي فُوجِئَ بِالحوتِ أَمْسِ فَقَطْ بِالقُرْبِ مِنْ سَفينَتِهِ . وَاسْتَنْتَجَ مِنْ ذَلِكَ أَنَّ الحوتَ الأَبْيَضَ لا بُدَّ أَنْ يَكونَ قَريباً مِنْ هَذا المَوْقِعِ ، خاصَّةً وَأَنَّ هَذِهِ المِنْطَقَةَ مِنَ المُحيطِ هِيَ إِحْدى الأَماكِنِ المُفَضَّلَةِ لِمُوبي دِك ، وَالَّذي انْتَزَعَ فيها ساقَ الرُّبَّانِ آخاب . وَلَعَلَّ هَذا هُوَ السَّبَبُ الَّذي جَعَلَ آخاب يَصُمُّ أُذُنَيْهِ عَنِ الاسْتِماعِ لِرَجاءِ غارْدنَر في البَحْثِ عَنِ القارِبِ المَفْقودِ ، فَقَدْ كانَ يَخْشى أَنْ تَضيعَ مِنْهُ فُرْصَةُ مُواجَهَةِ مُوبي دِك .

بَدا سَطْحُ السَّفينَةِ بيكُوْد في هَذا الوَقْتِ ضَيِّقاً لِلْغايَةِ ، لا يَتَّسِعُ لِما يَعْتَمِلُ في صَدْرِ آخاب مِنْ رَغْبَةٍ عارِمَةٍ في العُثورِ عَلى موبي دِك ؛ لِمُلاقاتِهِ وَالانْتِقامِ مِنْهُ . لِذَلِكَ أَصْدَرَ أَوامِرَهُ لِلْبَحَّارَةِ أَنْ

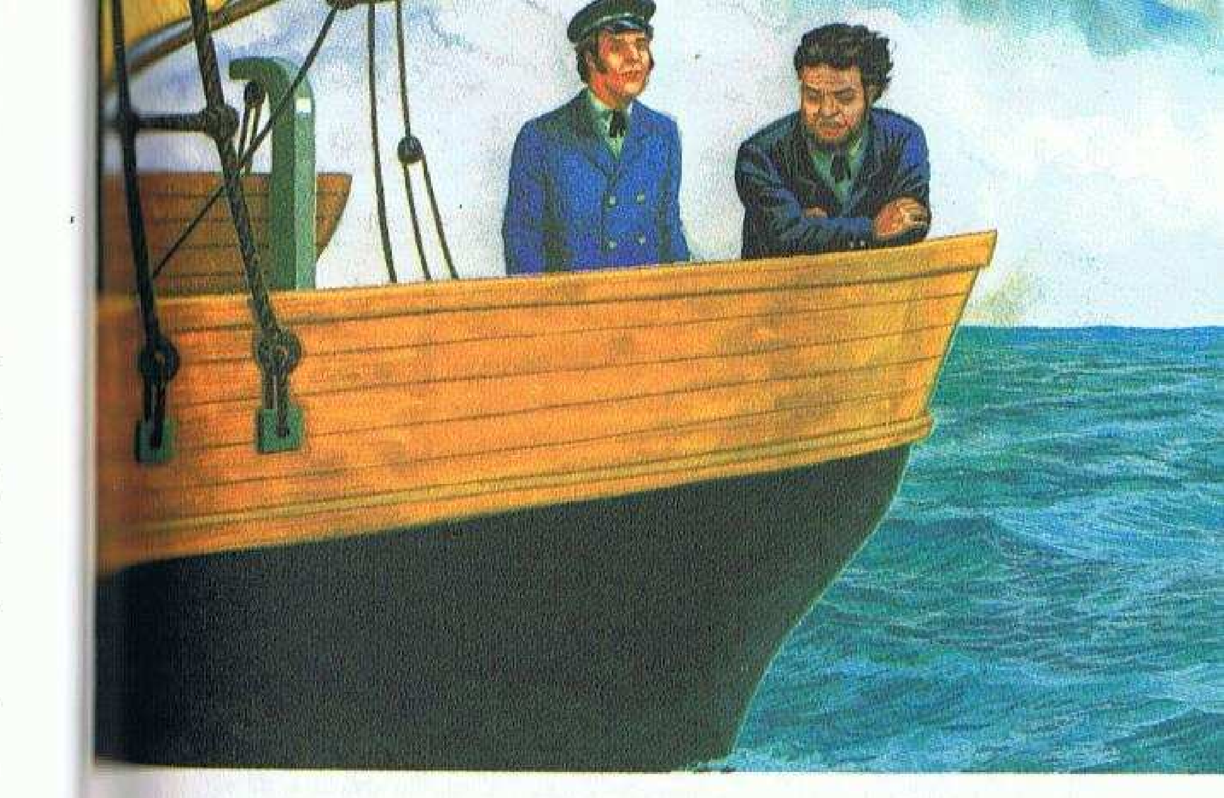
يَصْنَعوا لَهُ مَقْعَداً خَشَبِيًّا ، وَرَبَطَ هَذا المَقْعَدَ بِحَبْلَيْنِ مِنَ الحِبالِ المُتَدَلِّيَةِ مِنَ الصَّاري .

قالَ آخاب مُخاطِباً السَّيِّدَ ستارْبَك : « أَنْتَ المَسْئولُ عَنْ هَذِهِ الحِبالِ . اجْذِبِ المَقْعَدَ إِلى أَعْلى حَتَّى يَرْتَفِعَ إِلى قِمَّةِ الصَّاري . إِنَّني أَوَدُّ أَنْ أَكونَ أَوَّلَ شَخْصٍ يَرى مُوبي دِك . »

جَلَسَ آخاب في المَقْعَدِ وَأَخَذَ ستارْبَك يَسْحَبُ الحَبْلَيْنِ لِيَرْتَفِعَ المَقْعَدُ رُوَيْداً رُوَيْداً ، وَقَدْ امْتُقِعَ وَجْهُهُ حَتَّى وَصَلَ المَقْعَدُ إِلى قِمَّةِ الصَّاري تَقْريباً . وَهُناكَ اسْتَقَرَّ آخاب بِالقُرْبِ مِنْ رَجُلِ المُراقَبَةِ ، يُشارِكُهُ في مُهِمَّةِ الاسْتِطْلاعِ . أَمَّا بَحَّارَةُ السَّفينَةِ فَكانوا يُراقِبونَ هَذِهِ التَّصَرُّفاتِ الغَريبَةَ الَّتي تَصْدُرُ عَنْ رُبَّانِهِمْ ، وَالخَوْفُ يَمْلأُ قُلوبَهُمْ .

كانَ بَعْضُهُمْ يَحْمِلونَ طَعامَ الرُّبَّانِ إِلى قِمَّةِ الصَّاري مَرَّتَيْنِ كُلَّ يَوْمٍ ، وَعِنْدَما يَحينُ اللَّيْلُ يَهْبِطونَ بِمَقْعَدِهِ إِلى سَطْحِ السَّفينَةِ ، الَّذي لا يُغادِرُهُ آخاب أَبَداً ، لِدَرَجَةِ أَنَّ مَلابِسَهُ الَّتي تَبْتَلُّ بِماءِ المَطَرِ وَقَطَراتِ النَّدى لَيْلاً ، تُجَفِّفُها أَشِعَّةُ الشَّمْسِ الَّتي تَسْطَعُ نَهاراً ، فَلا وَقْتَ لَدَيْهِ لِتَبْديلِها .

اسْتَمَرَّتِ السَّفينَةُ بيكُوْد في الإِبْحارِ لَيْلاً وَنَهاراً . وَالأَمْواجُ



تَمضي مَعَ الأيّامِ وَتَتعاقبُ دونَ عَددٍ أوْ حِسابٍ ، وَالتّابوتُ الّذي أحيلَ إلى طَوْقٍ لِلنّجاةِ لا يَزالُ يَتأرْجحُ عِنْدَ مُؤخّرَةِ السّفينَةِ .

وَفي ساعَةٍ مُبكّرَةٍ مِنْ صَباحِ أحَدِ الأيّامِ شاهَدَ ستاربَكْ الرُّبّانَ آخاب مُسْتَنِداً إلى سورِ السّفينَةِ ، مُحمْلِقاً إلى البَحْرِ . وَبَيْنَما كانَ يُراقِبُهُ رَأى قَطَراتٍ مِنَ الدُّموعِ تَسْقُطُ مِنْ عَيْنَيْ هَذا الرَّجُلِ المُسنِّ إلى البَحْرِ .

دَنا ستاربَكْ مِنَ الرُّبّانِ حَتّى وَقَفَ بِجانِبِهِ ، وَعِنْدَما أحسَّ بِهِ الرُّبّانُ ناداهُ قائلاً : « ستاربَكْ ! »

« نَعَمْ ، يا سَيِّدي . »

« آهٍ ، يا ستاربَكْ ! كانَ يَوْماً مِثْلَ هَذا اليَوْمِ ، تَهُبُّ فِيهِ الرِّياحُ بِرِفْقٍ كَأنّها النَّسيمُ العَليلُ ، وَتَصْفو فيهِ السَّماءُ دونَ سُحُبٍ أوْ غُيومٍ . إنّني أتذَكّرُ جيّداً ذَلِكَ اليَوْمَ مُنْذُ أرْبَعينَ عاماً . في ذَلِكَ الوَقْتِ البَعيدِ كُنْتُ شابّاً يافِعاً في الثّامِنَةَ عَشْرَةَ مِنَ العُمْرِ ، أتعَلّمُ كَيْفَ أسْتَخْدِمُ الحَرْبَةَ وَأتَدرّبُ على صَيْدِ الحيتانِ . مُنْذُ أرْبَعينَ سَنَةً كامِلَةً ! طَوالَ هَذِهِ السّنَواتِ ظَلِلْتُ أقومُ بِصَيْدِ الحيتانِ حَتّى الآنَ . سَنَواتٌ وَسَنَواتٌ قَضَيْتُها في هَذا العَمَلِ الشّاقِّ المَحْفوفِ بِالمَخاطِرِ وَالصِّعابِ . بِحارٌ عاصِفَةٌ وَرِياحٌ مُخيفَةٌ مُرْعِبَةٌ . فَكِّرْ مَعي في الحَياةِ الّتي عِشْتُها . سَنَواتٌ مِنَ الوَحْدَةِ وَالشُّعورِ بِالعُزْلَةِ . أعْمَلُ عَبْداً لِلآخَرينَ . مُنْتَهى الحَماقَةِ وَالبَلاهَةِ . آخاب ، الّذي قارَبَ مِنَ العُمْرِ سِتّينَ عاماً ، لَمْ يَكُنْ إلّا شَخْصاً غَبِيّاً وَلا يَزالُ . وَالآنَ ما أنا إلّا شَخْصٌ مَجْنونٌ يَلْهَثُ وَراءَ اصْطِيادِ مُجَرَّدِ حوتٍ واحِدٍ . واقِعُ الأمْرِ أنّني أصْبَحْتُ أقْرَبَ إلى الشّيْطانِ مِنْهُ إلى الإنْسانِ . ماذا جَنَيْتُ مِنْ هَذِهِ الحَياةِ ؟ هَلْ أتَمَتّعُ اليَوْمَ بِثَراءٍ أعْرَضَ وَأوْسَعَ أمْ أتَمَتّعُ بِصِحّةٍ وَعافِيَةٍ أفْضَلَ ؟ لا هَذا وَلا ذاكَ . بِماذا أسْتَطيعُ إذاً أنْ أفْخَرَ وَأزْهوَ ؟ بِساقي الّتي فَقَدْتُها أمْ بِالعاهَةِ المُسْتَديمَةِ الّتي تَعوقُ حَرَكاتي وَسَكَناتي ؟ ما أنا في الحَقيقَةِ إلّا شَخْصٌ مُسِنٌّ عاجِزٌ يَعيشُ بِساقٍ

واحِدَةٍ فَقَطْ ، وَبِهذا الكَمِّ مِنَ الجُنونِ الَّذي يُسَيْطِرُ على عَقْلِهِ وَتَفْكيرِهِ . ما الَّذي يَتَحَكَّمُ في سُلوكي وَيَتَسَلَّطُ على تَصَرُّفاتي ؟ وَما الَّذي يَدْفَعُني إلى الهَلاكِ وَالدَّمارِ ؟ آهٍ ، يا ستارْبَك ! أَخْبِرْني ماذا تَرى ؟»

وَلكِنَّ ستارْبَك – بَعْدَ أَنِ اسْتَمَعَ إلى هَذِهِ الآهاتِ وَهَذِهِ الحَسَراتِ ، وَبَعْدَ كَبْتٍ دامَ عَشَراتِ السِّنينَ – نَأى عَنِ الرُّبّانِ وَابْتَعَدَ عَنْهُ ، شاحِبَ الوَجْهِ مُمْتَقِعَ الوَجْهِ كَالأَمْواتِ ، دونَ أَنْ يَنْطِقَ بِكَلِمَةٍ واحِدَةٍ مِنْ فَرْطِ تَأَثُّرِهِ وَحُزْنِهِ واضْطِرابِهِ .

سارَ آخاب عَبْرَ سَطْحِ السَّفينَةِ ، وَ وَقَفَ مُتَطَلِّعًا إلى البَحْرِ على الجانِبِ الآخَرِ ، حَيْثُ فُوجِئَ بِعَيْنَيْنِ بارِزَتَيْنِ في مِياهِ البَحْرِ الصّافِيَةِ أَسْفَلَ مِنْهُ ؛ فَأَطْلَقَ صَيْحَةَ اسْتِغْرابٍ مُدَوِيَةً ، وَظَهَرَ أَمامَهُ خَيالُ شَخْصٍ لَمْ يَكُنْ إلا فَيْضَ اللَّهِ الَّذي يُلازِمُهُ في صَمْتٍ وَهُدوءٍ كَأَنَّهُ يُذَكِّرُهُ بِتَنَبُّؤاتِهِ .

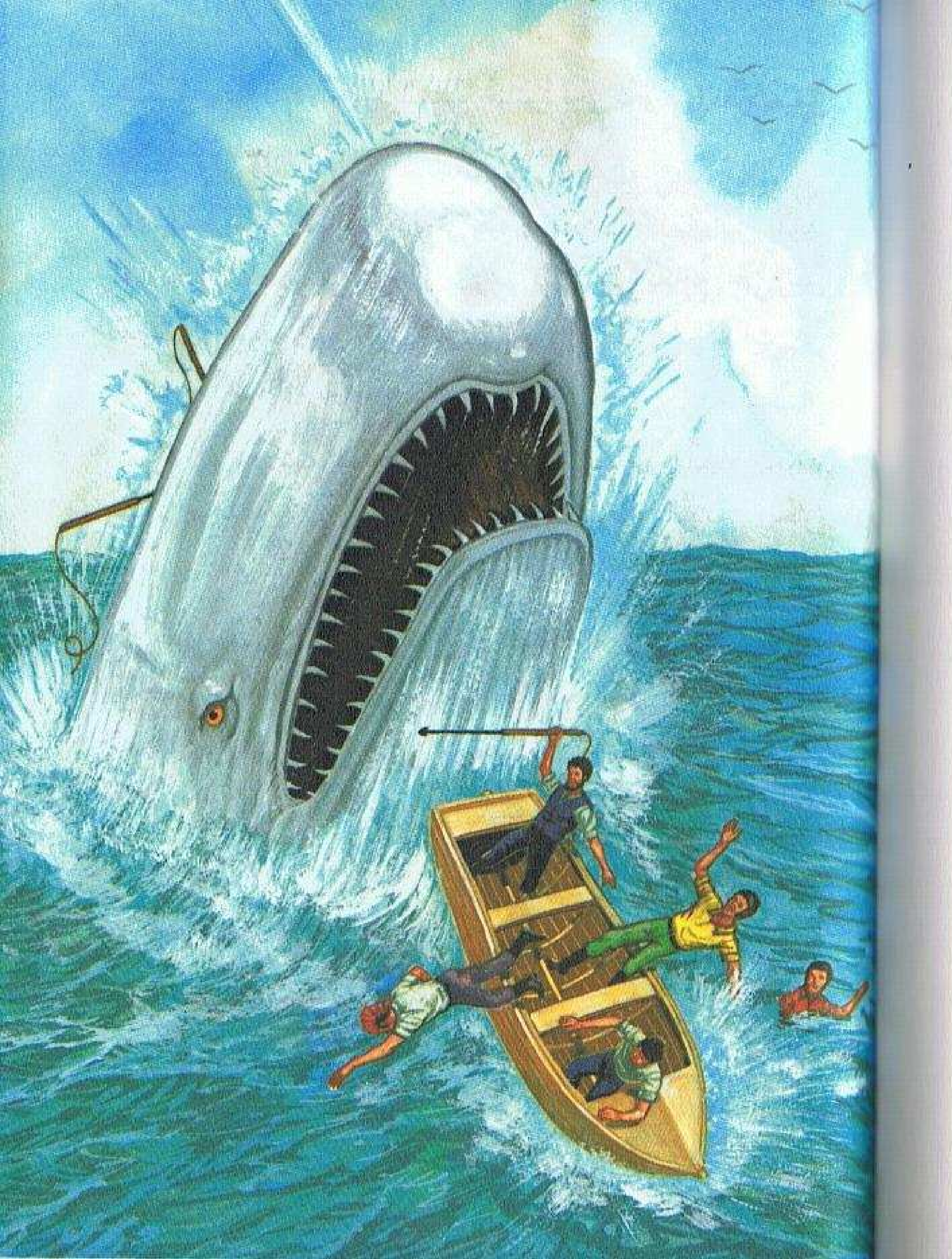
وَفي اللَّحْظَةِ نَفْسِها ، انْطَلَقَتْ صَيْحَةٌ مِنْ قِمَّةِ الصّاري : « ظَهَرَ الحوتُ الأَبْيَضُ ! ظَهَرَ بِأَنْفِهِ فَوْقَ سَطْحِ الماءِ ! إِنَّهُ موبي دِك !»

الفصل الثاني والعشرون

الرُّبّانُ في فمِ الحوت

دَوَّتْ صَيْحَةُ رَجُلِ المُراقَبَةِ في جَميعِ أَنْحاءِ السَّفينَةِ ، وَرَدَّدَتْها البَحّارَةُ إعْلامًا بِظُهورِ الحوتِ الأَبْيَضِ . وَفي أَقْصَرِ وَقْتٍ مُمْكِنٍ كانَ الجَميعُ مُسْتَعِدّينَ في قَوارِبِهِمُ الَّتي انْطَلَقَتْ بِهِمْ في عُرْضِ البَحْرِ .

مَرَّةً أُخْرى انْدَفَعَتْ جَميعُ قَوارِبِ الصَّيْدِ على سَطْحِ المِياهِ ، وَفي مُقَدِّمَتِها قارِبُ الرُّبّانِ آخاب . كانَ البَحْرُ هادِئًا ، وَكانَ مِنَ اليَسيرِ رُؤْيَةُ ظَهْرِ الحوتِ الأَبْيَضِ يَنْزَلِقُ في هَوادَةٍ . وَعلى حينِ غِرَّةٍ ارْتَفَعَ ذَيْلُهُ الضَّخْمُ عالِيًا في الهَواءِ وَغَطَسَ في أَعْماقِ البَحْرِ . حينَئِذٍ تَوَقَّفَتِ القَوارِبُ وَظَلَّتْ طافِيَةً على سَطْحِ الماءِ ؛ انْتِظارًا لِصُعودِ موبي دِك . وَبَيْنَما كانَ إيهابُ يَتَرَقَّبُ ظُهورَ الحوتِ في تَحَفُّزٍ وانْتِباهٍ ، تَجَمَّدَ الدَّمُ في عُروقِهِ حينَ شاهَدَهُ آتِيًا إلى السَّطْحِ بِسُرْعَةٍ مُذْهِلَةٍ ، فاغِرًا فاهُ إلى أَقْصاهُ ، حَيْثُ رَأى فيهِ آخاب بِكُلِّ وُضوحٍ صَفَّيْنِ



طَويلَيْنِ مِنَ الأَسْنانِ وَالأَنْيابِ البَيْضاءِ مُتَجِهَةً نَحْوَهُ .

أدارَ الرُّبّانُ القارِبَ وَزَحَفَ إِلى مُقَدِّمَتِهِ وَالْتَقَطَ الحَرْبَةَ ، وَلَكِنَّ مُوبي دِك بَدا كَأَنَّهُ يُراقِبُهُ ، وَكَما لَوْ كانَ يَعْرِفُ ما هُوَ عازِمٌ عَلَيْهِ ؛ فَانْقَلَبَ فَجْأَةً عَلى ظَهْرِهِ وَاحْتَوى القارِبَ في فَمِهِ بَيْنَ فَكَّيْهِ ، وَأَخَذَ يَتَلاعَبُ بِهِ كَما لَوْ كانَ قِطَّةً تُداعِبُ فَأْراً .

في هَذا الوَضْعِ الحَرِجِ لَمْ يَكُنْ في مَقْدورِ آخاب أَنْ يُهاجِمَ الحوتَ بِحَرْبَتِهِ ، وَقَدْ أَثارَتْ مَهارَةُ الحوتِ ، وَما انْطَوَتْ عَلَيْهِ مِنْ شُرورٍ جُنونَ غَضَبِهِ حينَ وَجَدَ نَفْسَهُ عاجِزاً في القارِبِ ، لا حَوْلَ لَهُ وَلا قُوَّةَ ؛ بَيْنَ فَكَّيِ الحوتِ الَّذي يَمْقُتُهُ أَشَدَّ المَقْتِ ؛ فَحاوَلَ أَنْ يُخْرِجَ القارِبَ مِنْ فَمِ الحوتِ ، وَلَكِنَّهُ فَقَدَ تَوازُنَهُ وَسَقَطَ في البَحْرِ . وَأَطْبَقَ الحوتُ فَكَّيْهِ عَلى القارِبِ فَقَضَمَهُ نِصْفَيْنِ ، وَظَلَّ كُلُّ جُزْءٍ مِنْهُما طافِياً فَوْقَ سَطْحِ الماءِ ، يَتَعَلَّقُ بِهِ البَحّارَةُ أَمَلاً في النَّجاةِ . وَظَلَّ الحوتُ يَحومُ حَوْلَهُمْ ، في الوَقْتِ الَّذي لَمْ يَجْرُؤْ فيهِ البَحّارَةُ في قَوارِبِ الصَّيْدِ الأُخْرى عَلى مُهاجَمَتِهِ ؛ خَشْيَةَ أَنْ يَعْصِفَ بِالرِّجالِ الَّذينَ أَلْقاهُمْ في المِياهِ بِذَيْلِهِ الضَّخْمِ الفَظيعِ ، وَيَقْضِيَ عَلَيْهِمْ قَضاءً مُبْرَماً .

لَمْ يَسْتَسْلِمِ الرُّبّانُ لِهَذِهِ الهَزيمَةِ ، بَلْ صاحَ عَلى الرِّجالِ فَوْقَ

السَّفينَةِ بِيكوُد : « اتَّجِهوا بِالسَّفينَةِ مُباشَرَةً نَحْوَ الحوتِ ! اطْرُدوهُ مِنْ هَذا المَكانِ ! »

وَطغَتْ مَوْجَةٌ مِنْ أَمْواجِ البَحْرِ عَلَيْهِ ؛ فَضاعَتْ كَلِماتُهُ بَيْنَ طَيَّاتِ المِياهِ ، وَلَمْ تَصِلْ إلى الرِّجالِ . رَغْمَ ذَلِكَ ظَلَّ يُكافِحُ حَتَّى شَقَّ طَريقَهُ إلى سَطْحِ البَحْرِ مَرَّةً أُخْرى مُضْطَرًّا إلى ابْتِلاعِ كَمِّيَّاتٍ مِنْ مِياهِ البَحْرِ ، مُحاوِلاً تَوْصيلَ أَوامِرِهِ إلى رِجالِهِ .

وَهكَذا تَحَرَّكَتِ السَّفينَةُ بِيكوُد نَحْوَهُمْ . وَبِمُجَرَّدِ ابْتِعادِ الحوتِ عَنْهُمْ ، انْدَفَعَ بَحَّارَةُ القَوارِبِ الأُخْرى لالْتِقاطِ الرُّبَّانِ وَبَحَّارَةِ قارِبِهِ .

رَقَدَ آخاب في قاعِ القارِبِ الَّذي أَنْقَذَهُ فاقِدَ الوَعْيِ خائِرَ القُوى، وَلَكِنَّهُ تَحامَلَ عَلى نَفْسِهِ وَرَفَعَ رَأْسَهُ قَليلاً وَهُوَ يُعاني مِنْ آلامٍ مُبَرِّحَةٍ مُتَسائِلاً : « هَلْ وَجَدْتُمْ حَرْبَتي سَليمَةً ؟ »

« نَعَمْ ، يا سَيِّدي ! لَمْ يَكُنْ ثَمَّةَ فُرْصَةٌ لإِطْلاقِها عَلى الحوتِ . »

« ضَعوها بِجِواري . هَلْ فَقَدْنا أَحَدًا مِنْ رِجالِنا ؟ »

« لا ، يا سَيِّدي ! أَنْقَذْناهُمْ جَميعًا . »

« إِذًا أَعينوني عَلى الجُلوسِ . هُناكَ عَلى مَدى البَصَرِ لا أَزالُ

أَراهُ مَرَّةً أُخْرى . »

وَلَكِنَّ مُوبي دِك أَطْلَقَ العِنانَ سابِحًا بِسُرْعَةٍ فائِقَةٍ ، لا تَسْمَحُ لِقَوارِبِ الصَّيْدِ أَنْ تَلْحَقَ بِهِ عَلى الإِطْلاقِ ؛ فَعادَتْ بِرِجالِها إلى السَّفينَةِ بِيكوُد الَّتي نَشَرَتْ كافَّةَ أَشْرِعَتِها ، وَأَسْرَعْنا نَقْتَفي أَثَرَ الحوتِ الأَبْيَضِ ، حَتَّى خَيَّمَ الظَّلامُ . وَظَلَّ آخاب مُقيمًا فَوْقَ سَطْحِ السَّفينَةِ حَتَّى بَزَغَ ضَوْءُ النَّهارِ مَرَّةً ثانِيَةً .

الفصل الثالث والعشرون

عَوْدَةُ مُوبي دِك

مُنْذُ صَباحِ اليَومِ التّالي تَرَكَّزَ اهْتِمامُ كُلِّ فَرْدٍ مِنْ بَحّارَةِ السَّفينَةِ على تَرَقُّبِ ظُهورِ مُوبي دِك .

لَمْ يَعُدْ أيُّ شَخْصٍ مِنْهُمْ يَشْعُرُ بِخَوفٍ أوْ وَجَلٍ ، فَقَدْ أثارَتْهُمُ المُغامَرَةُ الَّتي خاضَها الرُّبّانُ وَرِجالُهُ في مُواجَهَةِ الحُوتِ الأبْيَضِ ، وَطَغَتْ على مُخَيِّلَةِ كُلٍّ مِنْهُمْ . وَبِمُجَرَّدِ ما اسْتَأنَفَتِ السَّفينَةُ إبْحارَها في أعْقابِ مُوبي دِك ، تَلاشى كُلُّ خَوْفٍ كانوا يَشْعُرونَ بِهِ مِنْ هَذا الحوتِ المُفْتَرِسِ ، وَتَوارى كُلُّ خَطَرٍ كانوا يَتَوَقَّعونَهُ مِنْ جَرّاءِ الجُنونِ الَّذي سَيْطَرَ على رُبّانِهِمْ .

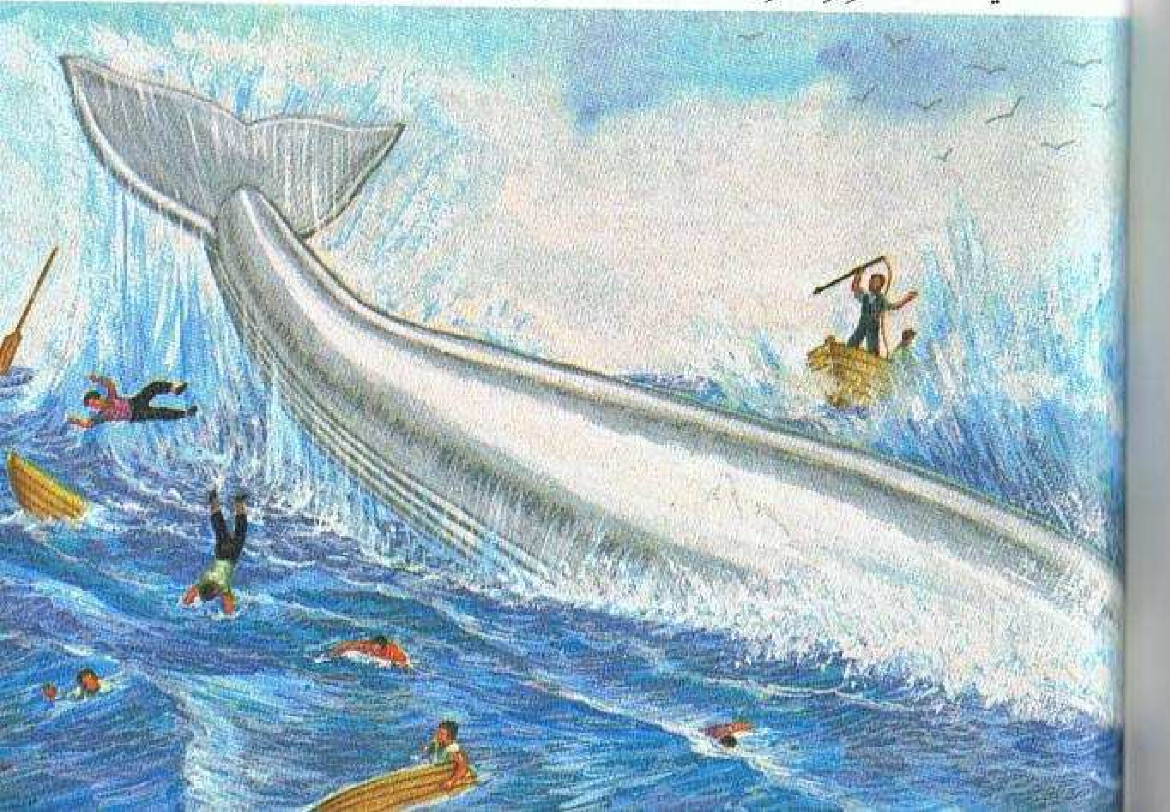
صاحَ آخاب : « هَلْ تَرَوْنَهُ ؟ هَلْ تَرَوْنَ مُوبي دِك ؟ »

إنَّهُ هُناكَ ! يَصْعَدُ مِنْ أعْماقِ البَحْرِ بِأقْصى ما لَدَيْهِ مِنْ سُرْعَةٍ ، وَيَقْفِزُ مُنْطَلِقًا بِجَسَدِهِ كُلِّهِ في الهَواءِ ، ثُمَّ يَهْبِطُ مَرَّةً أخْرى كُتْلَةً

واحِدَةً بِحَجْمِهِ الضَّخْمِ ، فَيُثيرُ البَحْرَ وَيَجْعَلُهُ هائِجًا مُضْطَرِبًا بِالأمْواجِ – الأمْواجِ البَيْضاءِ الَّتي تُبَدِّدُ زُرْقَةَ المِياهِ .

صاحَ آخاب : « إلى القَوارِبِ ، يا رِجالُ ! أمّا أنْتَ ، يا سَيِّدُ ستارْبَك ، فَعَلَيْكَ بِالبَقاءِ في السَّفينَةِ ، وَتَوَلَّ مَسْؤولِيَةَ قِيادَتِها . وَعَلَيْكَ أنْ تَسيرَ بِها مُتَتَبِّعًا قَوارِبَ الصَّيْدِ وَمُراعِيًا المَسافَةَ المُلائِمَةَ . »

انْطَلَقَتْ ثَلاثَةُ قَوارِبَ فَقَطْ مِنَ السَّفينَةِ إلى البَحْرِ . وَفي الحالِ ، اسْتَدارَ مُوبي دِك سابِحًا في أعْقابِها ، وَكانَ قارِبُ الرُّبّانِ في وَسَطِها . وَاسْتَجْمَعَ الحوتُ الأبْيَضُ كُلَّ طاقَتِهِ وَسُرْعَتِهِ ، وَفي الوَقْتِ الَّذي كانَتْ فيهِ الحِرابُ تَتَقاطَرُ عَلَيْهِ مِنْ كُلِّ اتِّجاهٍ ، فَتَحَ فَكَّيْهِ



عَنْ آخرِهما وَأَخذَ يُهاجِمُ في عُنْفٍ وَثَوْرةٍ مُحاولاً تدميرَ كُلِّ شيْءٍ حَوْلَهُ ، حتَّى تَمكَّنَ مِنْ تَحْطيمِ قارِبَيْ فلاسك وَستاب بَعْدَ مَعْرَكَةٍ حامِيَةٍ ، وَأَلْقى بِالبَحَّارَةِ في البَحْرِ يُصارِعونَ المَوْتَ غَرَقًا وَيُكافِحونَ مِنْ أَجْلِ النَّجاةِ .

أَمَّا قارِبُ الرُّبَّانِ فَكانَ لا يَزالُ فَوْقَ سَطْحِ الماءِ . وَفَجْأَةً غَطَسَ مُوبي دِك في البَحْرِ وَصَعَدَ مِنْ تَحْتِ القارِبِ قاذِفًا بِهِ في الهَواءِ ، حَيْثُ هَبَطَ مَقْلوبًا رَأْسًا على عَقِبٍ ، وَاسْتَطاعَ بَحَّارَتُهُ بَعْدَ كِفاحٍ مَريرٍ أَنْ يَشُقُّوا طَريقَهُمْ مِنْ تَحْتِ القارِبِ إِلى سَطْحِ البَحْرِ .

وَلِحُسْنِ الحَظِّ ، كانَتِ السَّفينَةُ بيكُود بِالقُرْبِ مِنْ مَوْقِعِ المَعْرَكَةِ ، فَأَسْرَعَتْ بِالْتِقاطِ الرِّجالِ مِنَ البَحْرِ ، وَأَنْقَذَتْهُمْ .

صاحَ الرُّبَّانُ : « أَحْصُوا الرِّجالَ ! أَيْنَ فَيْضُ اللَّهِ ؟ مَفْقودٌ ! لا يُمْكِنُ تَصْديقُ ذَلِكَ ! » وَلَكِنَّهُ أَمْرٌ واقِعٌ فِعْلاً ؛ فَلَمْ يَكُنْ فَيْضُ اللَّهِ مِنْ بَيْنِ النَّاجينَ العائِدينَ .

قالَ ستاب : « رَأَيْتُ الحوتَ الأَبْيَضَ يَسْحَبُهُ تَحْتَ الماءِ وَقَدِ الْتَفَّ حَبْلُ الحَرْبَةِ عَلَيْهِ . »

صاحَ آخاب : « حَرْبَتي ضاعَتْ ! أَسْرِعوا ! أَحْضِروا مَزيدًا مِنَ الحِرابِ . زيدوا سُرْعَةَ السَّفينَةِ . سَأَقْتُلُ هَذا الحوتَ رَغْمَ كُلِّ ذَلِكَ ! »

تَضَرَّعَ ستاربَك إِلى اللَّهِ أَنْ يُنْقِذَهُمْ جَميعًا مِنْ أَخْطارِ الحُمَّى الَّتي انْتابَتِ الرُّبَّانَ بِمُطارَدَةِ الحوتِ الأَبيض ، وَحاوَلَ أَنْ يَرُدَّ آخاب إِلى جادَّةِ الصَّوابِ ، قائِلاً لَهُ : « لا فائِدَةَ مِنَ الاسْتِمْرارِ في هَذا الصِّراعِ . أَتَوَسَّلُ إِلَيْكَ ! إِنَّنا لَنْ نَسْتَطيعَ الظَّفَرَ بِهِ أَبَدًا ! وَمِنَ الحَماقَةِ الطَّائِشَةِ أَنْ نُحاوِلَ اصْطِيادَ هَذا المَخْلوقِ القاتِلِ بَعْدَ ذَلِكَ ! أَ لَمْ تَرَ بِنَفْسِكَ كَيْفَ يُنازِلُنا وَيَخوضُ مَعَنا مَعارِكَ ضارِيَةً ؟ لَيْسَ هُناكَ ما يَدْعو إِلى الإِصْرارِ عَلى إِقْحامِ أَنْفُسِنا في هَذِهِ المُحاوَلَةِ اليائِسَةِ ، يا سَيِّدي ، وَإِلا فَإِنَّهُ – بِكُلِّ تَأْكيدٍ – سَيَدْفِنُنا جَميعًا في أَعْماقِ البَحْرِ ! »

رَدَّ عَلَيْهِ آخاب قائِلاً : « إِنَّهُ القَدَرُ . فَيْضُ اللَّهِ كانَ يَعْلَمُ ذَلِكَ جَيِّدًا . وَلَيْسَ في وُسْعِنا أَنْ نُغَيِّرَ مَصيرَنا بِأَيْدينا . الآنَ فَقَدْنا فَيْضَ اللَّهِ ، وَعَلَيَّ أَنْ أَسْتَمِرَّ في هَذِهِ المَعْرَكَةِ . »

وَهَمَسَ الرُّبَّانُ قائِلاً لِنَفْسِهِ : « كانَ مِنَ المُحَتَّمِ أَنْ يَموتَ فَيْضُ اللَّهِ أَوَّلاً . وَلَكِنَّني سَأَراهُ مَرَّةً أُخْرى قَبْلَ أَنْ أَموتَ ، فَكَيْفَ يَكونُ ذَلِكَ مُمْكِنًا ؟ »

لَمْ يَكُنْ في اسْتِطاعَةِ البَحَّارَةِ إِلَّا أَنْ يُذْعِنوا لِأَوامِرِ الرُّبَّانِ ؛ فَأَقْبَلوا مُرْغَمينَ عَلى إِصْلاحِ القَوارِبِ وَتَرْميمِها ، وَعَلى إِعْدادِ حِرابٍ جَديدَةٍ ؛ اسْتِعْدادًا لِخَوْضِ المَعْرَكَةِ القادِمَةِ مَعَ مُوبي دِك .

الفصل الرابع والعشرون

النِّهايَةُ

في اليَوْمِ التّالي نَزَلَتْ قَوارِبُ الصَّيْدِ مَرَّةً أخرى إلى البَحْرِ . وَكانَ الرُّبّانُ على يَقينٍ مِنْ أنَّ موبي دِك لا يَزالُ قَريباً مِنَ السَّفينَةِ . وَبَغْتَةً صاحَ رَجُلُ المُراقَبَةِ وَالاسْتِطْلاعِ مُشيراً إلى ظُهورِ الحوتِ الأبْيَضِ . وَحَمْلَقَ الجَميعُ وانْتَصَبوا في صَمْتٍ ، كَأنَّ على رُءوسِهِمُ الطَّيْرَ ، فَإذا بِهِمْ يُشاهِدونَ الحوتَ المُفْتَرِسَ يَخْرُجُ مِنَ البَحْرِ ثائِراً هائِجاً لا تَزالُ الحِرابُ وَالرِّماحُ مَغْروزَةً في جَسَدِهِ ، وَالحِبالُ المَرْبوطَةُ بِها مَلْفوفَةً حَوْلَهُ ، وَقَدْ جُنَّ جُنونُهُ بِسَبَبِ الآلامِ الّتي تَعْتَصِرُهُ ؛ فَأخَذَ يَضْرِبُ بِذَيْلِهِ بَيْنَ القَوارِبِ في عُنْفٍ وَضَراوَةٍ ، يُقَلِّبُها وَيُحَطِّمُها . وَعِنْدَما اقْتَرَبَ الحوتُ سابِحاً يَتَلَوّى بَيْنَ الأمْواجِ ، دَوَّتْ صَيْحَةُ فَزَعٍ مِنْ أعْماقِ البَحّارَةِ ، حينَ وَقَعَتْ عُيونُهُمْ عَلى جُثَّةِ فَيْضِ اللّهِ مُلْتَصِقَةً بِجَسَدِ الحوتِ ، مُمَزَّقَةَ الأشْلاءِ ، تُحيطُ بِها حِبالُ الحِرابِ ، وَتَنْظُرُ عَيْناها الجاحِظَتانِ رَأساً إلى آخاب في رُعْبٍ .

صَرَخَ آخاب : « أجَلْ يا فَيْضَ اللّهِ ! إنَّني أراكَ مَرَّةً ثانِيَةً بَعْدَ مَوْتِكَ ؛ فَإذا بِجَسَدِ الحوتِ هُوَ عَرَبَةُ المَوْتى الأولى ، وَكَما تَنَبَّأتَ فَإنَّها لَيْسَتْ مَصْنوعَةً بِأيْدي العُمّالِ ! »

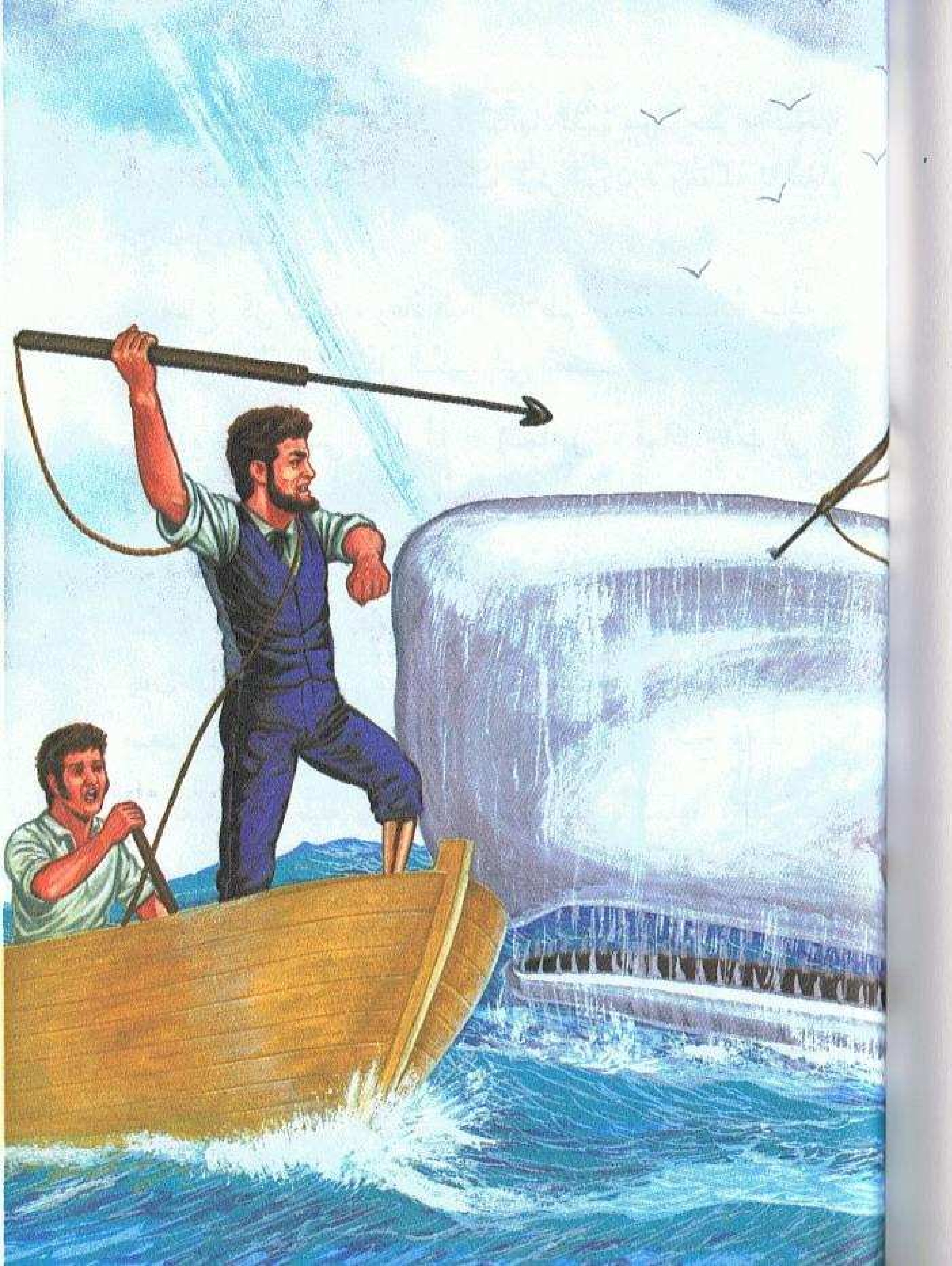
تَوَسَّلَ ستارْبَك إلى آخاب مُتَضَرِّعاً : « الحوتُ يَبْتَعِدُ عَنّا الآنَ ! دَعْهُ وَشَأنَهُ ! وَيَبْدو أنَّهُ عازِفٌ عَنِ القِتالِ أكْثَرَ مِنْ ذلِكَ . أنْتَ فَقَطْ الّذي لا تَزالُ عَلى عِنادِكَ وَإصْرارِكَ عَلى صَيْدِهِ في تَهَوُّرٍ وَحَماقَةٍ ! »

وَلكِنَّ آخاب صَمَّ أُذُنَيْهِ عَنْ تَوَسُّلاتِ ستارْبَك ؛ وَتَقَدَّمَ بِقارِبِهِ مَرَّةً أخْرى نَحْوَ الحوتِ ، وَأطْلَقَ حَرْبَتَهُ بِكُلِّ ما لَدَيْهِ مِنْ طاقَةٍ مَكْبوتَةٍ لِلانْتِقامِ ، وَهُوَ يَصُبُّ أقْسى اللَّعَناتِ عَلَيْهِ .

عادَ موبي دِك سَريعاً يُهاجِمُ القارِبَ وَيَهُزُّهُ مِنْ ناحِيَةٍ لأخْرى ، حَتّى ألْقى بِاثْنَيْنِ مِنْ بَحّارَتِهِ في البَحْرِ ، ثُمَّ اتَّجَهَ نَحْوَ السَّفينَةِ بيكْوُد ، الّتي كانَتْ بِالقُرْبِ مِن هَذا المَوْقِعِ ، فاغِراً فَكَّيْهِ عَلى مِصْراعَيْهِما في غَضَبٍ شَديدٍ .

صاحَ ستارْبَك : « احْذَروا الحوتَ ! حَوِّلوا الاتِّجاهَ لِمُلاقاتِهِ بِمُقَدِّمَةِ السَّفينَةِ ! أديروها بِسُرْعَةٍ ! »

وَلكِنَّ موبي دِك كانَ أسْرَعَ مِنَ البَحّارَةِ ، فَهَجَمَ وَهُوَ في أوْجِ هِياجِهِ عَلى جَنْبِ السَّفينَةِ وَحَطَّمَهُ بِرَأسِهِ الضَّخْمِ ، وَأحْدَثَ بِهِ فَجْوَةً



انْدَفَعَتِ المِياهُ بِشِدَّةٍ مِنْ خِلالِها إلى داخِلِ السَّفينَةِ .

صَرَخَ آخاب مِنْ قارِبِهِ وَقَدِ انْتابَتْهُ حالَةٌ مِنَ الجُنونِ : « السَّفينَةُ ! السَّفينَةُ ! أَصْبَحَتْ عَرَبَةَ المَوْتى الثّانِيَةَ لِلْبَحّارَةِ كُلِّهِمْ ! كَما تَنَبَّأَ فَيْضُ اللّهِ بِأَنَّها سَتَكونُ مَصْنوعَةً مِنْ أَخْشابِ أَمْريكا . وَلَكِنَّ هٰذِهِ النُّعوشَ وَهٰذِهِ العَرَباتِ سَتَغوصُ في البَحْرِ حَيْثُ تُدْفَنُ المَوْتى فيهِ ! وَلَنْ أَموتَ أَنا بِهٰذِهِ الطَّريقَةِ ، بَلِ الحَبْلُ فَقَطْ سَيَكونُ سَبَبَ مَوْتي . إذًا دَعْني أَرْبُطُ نَفْسي بِكَ أَيُّها الحوتُ الشَّيْطانِيُّ الخَبيثُ !»

وَأَطْلَقَ حَرْبَةً نَحْوَ الحوتِ ، وَلَكِنَّ الحَبْلَ المَرْبوطَ بِها تَعَثَّرَ بِالقارِبِ ، فَانْحَنى آخاب لِيُخَلِّصَهُ وَلَكِنَّهُ الْتَفَّ حَوْلَ عُنُقِهِ ، فَسَقَطَ في البَحْرِ قَبْلَ أَنْ يَكْتَشِفَ البَحّارانِ الباقِيانِ غَرَقَهُ .

وَعِنْدَما اسْتَدارا نَحْوَ السَّفينَةِ صاحا في دَهْشَةٍ وَلَوْعَةٍ : « السَّفينَةُ ! أَيْنَ السَّفينَةُ ! انْشَقَّ البَحْرُ وَابْتَلَعَتْها المِياهُ !»

لَمْ يَعُدْ ظاهِرًا فَوْقَ سَطْحِ البَحْرِ إلّا صاري السَّفينَةِ فَقَطْ ، وَالمِياهُ تَدورُ في دُوّاماتٍ حَوْلَ المَوْقِعِ ، في الوَقْتِ الَّذي تَغوصُ فيهِ السَّفينَةُ في أَعْماقِ البَحْرِ .

وَظَلَّ تاشْتيغو مُتَشَبِّثًا بِقِمَّةِ الصّاري ، وَكانَ آخِرَ مَنِ اخْتَفى في قَلْبِ دُوّاماتِ المِياهِ . وَلَمْ يَبْقَ حينَئِذٍ إلّا طُيورُ البَحْرِ تُحَلِّقُ فَوْقَ

المَكانِ ، وَهِيَ تَنْعَقُ بِأَصْواتٍ ، كَأَنَّها تَنْدُبُ سوءَ حَظِّ الضَّحايا الَّذينَ فَقَدوا أَرْواحَهُمْ غَرَقًا ؛ بِسَبَبِ طَيْشِ الرُّبّانِ ، وَتَعَطُّشِهِ لِلانْتِقامِ مِنَ الحوتِ المُفْتَرِسِ .

ضاعَ كُلُّ شَيْءٍ ، وَعادَ البَحْرُ تَتَلاطَمُ أَمْواجُهُ وَتَنْسابُ مِياهُهُ ، كَما هِيَ عادَتُهُ طَوالَ كُلِّ السِّنينَ الَّتي انْقَضَتْ مِنْ قَبْلُ .

هَذِهِ نِهايَةُ قِصَّتي . أَمّا أَنا – إِسماعيل ، فَماذا حَدَثَ لي ؟ وَكَيْفَ نَجَوْتُ مِنْ هَذا البَحْرِ المُخيفِ ؟

تَخَلَّصَ التّابوتُ – الَّذي أُحيلَ مِنْ قَبْلُ إِلى طَوْقِ نَجاةٍ – مِنَ السَّفينَةِ بِيكْوُد وَهِيَ تَغوصُ في البَحْرِ ، وَلِحُسْنِ حَظّي ، وَقَبْلَ أَنْ يَدِبَّ اليَأْسُ في نَفْسي ، وَأَنا ما زِلْتُ مَشْدوهًا مِنْ هَوْلِ المُفاجَأَةِ ، صَعِدَ التّابوتُ إِلى السَّطْحِ بِالقُرْبِ مِنَ المَكانِ الَّذي أَسْبَحُ فيهِ .

وَتَعَلَّقْتُ بِهِ طيلَةَ يَوْمٍ كامِلٍ وَطَوالَ لَيْلَةٍ بِأَكْمَلِها ، تَدارَكَتْني فيهِما رَحْمَةُ اللَّهِ وَحِمايَتُهُ ؛ فَلَمْ تُصادِفْني أَسْماكُ القِرْشِ أَوْ كِلابُ البَحْرِ . وَهُنا تَذَكَّرْتُ نُبوءَةَ فَيْضِ اللَّهِ عَنْ تابوتِ المَوْتى الَّذي يَحْمِلُ رَجُلاً ما زالَ عَلى قَيْدِ الحَياةِ .

وَفي اليَوْمِ الثّاني ، رَأَيْتُ شِراعًا لِسَفينَةٍ يَظْهَرُ في الأُفُقِ البَعيدِ . وَلِحُسْنِ الحَظِّ الَّذي لازَمَني ، رَآني بَحّارَتُها وَانْتَشَلوني مِنَ البَحْرِ ، وَأَنْقَذوني مِنْ مَصيرٍ مَحْتومٍ . وَتَبَيَّنْتُ أَنَّها السَّفينَةُ راشيل الَّتي كانَتْ لا تَزالُ تَبْحَثُ عَنْ أَبْنائِها المَفْقودينَ ، فَلَمْ تَعْثُرْ إِلّا عَلى بَحّارٍ آخَرَ مَفْقودٍ .

المغامرات المثيرة

مكتبة لبنان
ساحة رياض الصلح - بيروت



رقم الكمبيوتر 01 C 198227